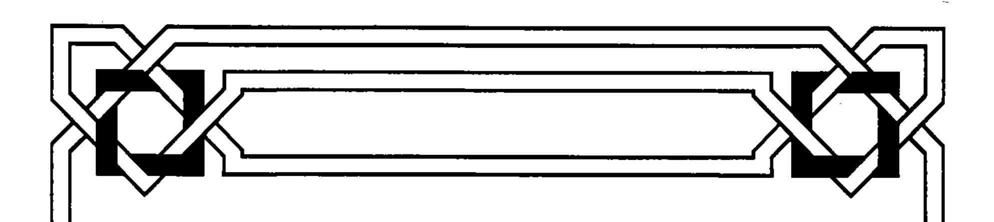
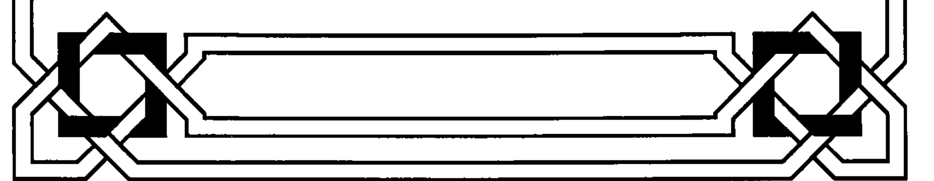


(٢١)

الشيخ الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله

رجل الدعوة في بلاد الشام





بسم الله الرحمن الرحيم

حدّثنا الفتى صادق أمين قال :

ـ زارنا الأستاذ بسّام، فرحّب به أبي ترحيباً شديداً، واهتمّ به اهتماماً لافتاً للنظر، ثمّ ناداني ونادى أختي صادقة، وقال لنا :

ـ هذا عمّكم بسّام، تلميذ الشيخ مصطفى السباعي ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ صحبه فترة من الزمن، وتعلّم منه الكثير، وعرف بعض جوانب حياته، وكتبها في مجلة (حضارة الإسلام) . . المجلة التي أنشأها السباعي العظيم، لتكون أختاً لمجلة (المسلمون) التي تبنّاها السباعي في دمشق، بعد أن هاجرت مع منشئها وصاحبها ورئيس تحريرها المفكر الخطيب الداعية الداهية الدكتور سعيد رمضان، الذي هاجر بها من مصر إلى دمشق، ليجدا الصدر الحاني، والملجأ الآمن، والعرين الرّعيب، والأيدي السّخيّة، والحبّ، والدِّفء، والأخوّة . .

ثمّ التفت أبي إلى الأستاذ بسّام، وقال له في وجه مبسام :

ـ هذا ابني صادق، وهذه ابنتي صادقة . . إنهما مغرمان بالرجال العظام في تاريخنا القديم والحديث . . إنهما يكثران من الأسئلة عنهم، ويحاولان معرفة دقائق حياتهم، فاصبر عليهما، وأرجوك أن تجيب على أسئلتهما، وحاول أن تكون دقيقاً في إجابتك، لأنهما يسجّلان كلَّ كلمة بهذا المسجّل الصغير الذي لا يكاد يفارق يد صادق .

أحاطتْ كلماتُ أبي وجه الأستاذ بسّام بإكليل من البسمات العِذاب، ثمّ قال :

ـ على الرحب والسعة . . شبلان كريمان يسألان عن أسد هصور، كان

زئيره يتجاوز الحدود، ليخيف أعداء الله في الداخل والخارج.

ولم أشأ تضييع دقيقة واحدة مع هذا الأستاذ الكريم، فأقبلتُ نحوه في ودٍّ، وقلت:

ـ أرجو ألاّ نثقل عليك بأسئلتنا يا أستاذ، فنحن من المعجبين جداً جداً بالدكتور مصطفى السباعي، وأول مرة سمعت باسم السباعي عندما كنت مع أبي في دمشق. أخذني إلى قهوة جميلة فوق جبل قاسيون، لا يُقدَّم فيها إلا الشاي والقهوة، وروّادها ـ فيما بدا لي ـ من الرجال المسنين، من العلماء والأدباء والشعراء.. كنت جالساً مع أبي وعمي نمتع أبصارنا بمنظر دمشق في الليل، وهو منظر بديع لا أنساه، وفيما كنا مستغرقين بذلك المنظر الخلاَّب، سمعتُ نقاشاً حادّاً بين عدد من الرجال الذين كانوا يجلسون بجانبنا: حول ثلاث مناضد جمعوا بعضها إلى بعضها الآخر. كانوا اثني عشر رجلاً، أصغر واحد فيهم في الستين من العمر.. كانوا يتحاورون حول: من هو أخطب؟ هتلر أم السباعي.

ضحك الأستاذ بسّام بصوت عالٍ، ثم تساءل:

ـ لكن: ما الجامع بين هتلر والسباعي؟ لماذا هذا الحوار بين شخصيتين متباعدتين لا يجمع بينهما جامع؟

قال أبي:

ـ كما قال صادق، كانوا من الجيل الذي سمع هتلر وهو يخطب، ثم سمع السباعي وهو يخطب، فطابت لهم المقارنة بين الرجلين في مجال الخطابة.

سأل الأستاذ:

ـ وهل وصلوا إلى نتيجة؟

قلت:

ـ نعم. كانت النتيجة لصالح الدكتور السباعي، فقد أحصوا له عدّة

نقاط زيادة على النقاط التي أحصوها لهتلر .

علّق الأستاذ بسّام على ما سمع قائلاً :

ـ قد يخطر لي كلُّ خاطر إلا هذا الخاطر . . هتلر ألماني ويخطب باللغة الألمانية ، والسباعي عربي ويخطب باللغة العربية . . عجيب .

قال أبي :

ـ لا تعجب يا أستاذ ، فقد كان أولئك معجبين بهتلر وخطابته ، وعندما سمعوا السباعي تذكّروا ذلك الخطيب البعيد ، وتحاوروا ، وقارنوا ، ثم خلصوا إلى ما خلصوا إليه .

قال الأستاذ :

ـ يبدو أنهم مثقفون ، ويعرفون اللغة الألمانية حتى استطاعوا المقارنة .

وسكت لحظة ثم قال :

ـ ولكن . . أين الثَّرى من الثُّريّا؟ أين هتلر وأبو هتلر وجدّ هتلر من الدكتور السباعي؟ السباعي خطيب مفوَّه . . خطيب مصقع . . خطيب لا مثيل له . .

وقال أبي :

ـ هذا صحيح . ولو أن العرب الذين سمعوا سَحْبان بن وائل ، خطيب العرب في الجاهلية والإسلام ـ سمعوا السباعي ، لفضّلوا السباعي عليه بعدّة نقاط .

سألت أبي عن سَحْبان هذا ، فقال :

ـ كان سحبان خطيباً يُضرب به المثل في البيان ، فكانوا يقولون : «أخطب من سحبان» ، و«أفصح من سحبان» . اشتهر في الجاهلية ، وعاش زمناً في الإسلام ، وكان إذا خطب يسيل عرقاً ، ولا يعيد كلمة ، ولا يتوقّف ، ولا يقعد حتى يفرغ . أسلم زمن النبيّ ﷺ ، ولم يجتمع به ، وأقام في دمشق

أيام معاوية رضي الله عنه، وتُوفّي سنة ٥٤هـ.

ولمّا أبديت إعجابي بسحبان الخطيب، انبرت صادقة تقول:

-حدثني جدّي عن السباعي فقال:

سمعت - في حياتي المديدة - عشرات الخطباء، من سياسيين ومشايخ، ولكني لم أسمع خطيباً كالسباعي. . سمعت الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، وكان سياسياً وطنياً، وخطيباً مفوَّهاً، وكنت أضرب به المثل في قوّة الخطابة، فلمّا سمعت الدكتور السباعي، رأيت الشهبندر ينسحب إلى الصف الثاني، وبقي السباعي عملاق الخطابة. . وسمعت بعد وفاة السباعي وفي حياته عدداً من الخطباء الأفذاذ. . سمعت سعيد رمضان، رحمه الله، وسمعت عصام العطار، حفظه الله، وهما خطيبان عظيمان، ولكنهما دون السباعي الذي كان يقف ساعة وساعتين وثلاث ساعات، يخطب ويخطب متدفقاً كالسيل العرم، لا يتلجلج، ولا يتردّد، ولا يتوقّف، ولا يتلعثم. . تنثال الكلمات على لسانه، والأفكار على جنانه، كأنما يقرأ في كتاب حفظ كلَّ ما فيه، عرف كل مراميه. . كان يتصبّب عرقاً وهو يخطب الساعات الطوال، ويحاضر مثلها، ويصرخ الصرخات المدوّية، يريدها صرخات حرّة مدوّية، فتشعل بارد الأعصاب، وتحرّك الجلمود، وتدغدغ العواطف، وتعصف بالعقول، وهو هو بقامته المديدة، وبجبينه الذي يتفصّد درراً، وهامته التي تختزن العلوم المختلفة، وقلبه الكبير الذي آمن ووعى معنى الإيمان. .

وأذكر أنّ جدّي انطلق يتحدّث بمثل هذه المعاني وبما هو أكبر منها، ساعة من الزمن، وليته كان هنا، لتسمعوا رأيه في السباعي الخطيب رحمه الله تعالى.

قال أبي، وهو ينظر في ساعة يده، ثم وهو يشير إلى الساعة الجدارية:

أخشى أن يفوت الوقت، قبل أن تأخذوا من عمّكم ما تريدون من حياة السباعي.

فقلت:

ـ بل نبدأ فوراً.

وقالت صادقة:

ـ نريد معرفة تفاصيل حياة هذا الرجل العظيم، إذا سمحت يا عمّي.

اعتدل الأستاذ بسّام في جلسته، ثم قال في شبه ابتسام:

ـ حياة أستاذنا وشيخنا الدكتور السباعي، رحمه الله، حافلة بألوان الجهاد المتواصل، وهو الداعية الموهوب، والمرشد المربّي، والقائد المناضل، والفقيه العالم، والأديب الشاعر، والخطيب الثائر، والمفكر الحكيم، والسياسي الصادق، والمؤمن الربّاني. فعن أي رجل من مجموعة الرجال التي اجتمعت في شخصه الحبيب أتحدّث؟

صادقة: عن كل هؤلاء الرجال، وبالتفصيل الدّقيق يا عمي.

بسام: سوف أقدّم عرضاً تاريخياً موجزاً وسريعاً لحياة هذا الرجل العظيم، لتكون لكم أسوة وقدوة، فسجلُّ حياته يشهد بأنه كان الداعية الفذّ الذي وهب دعوته كلَّ ذرّة من جهده وفكره وقلبه وروحه وأعصابه وحياته، كما يشهد بأن إنتاجه خلال عمره القصير الذي لم يتجاوز التاسعة والأربعين، كان عظيماً مثمراً.

صادق: جميل.. فلتبدأ يا سيدي مشكوراً، وأرجو من الله الكريم أن ييسّر لك سبل القول، وأن يصبّرك علينا.

بسام: وُلد الدكتور مصطفى السباعي في مدينة حمص، في سورية الحبيبة، عام ١٩١٥م ـ ١٣٣٣هـ. من أسرة علمية عريقة، فقد كان أبوه الشيخ حسني وأجداده يتولّون الخطابة في الجامع الكبير بحمص منذ زمن طويل.

صادق: حبّذا إلقاء بعض الضوء على حياة أبيه الشيخ حسني ياسيّدي.

بسام: كان الشيخ حسني عالماً عاملاً، وشيخاً مجاهداً، وصاحب

نخوة ومروءة وكرم، يسارع في الخيرات وعمل المبرات، ويقاوم المعتدين الفرنسيين، ويناضل الطغاة المستبدين، ويدافع عن المستضعفين والمظلومين من الفقراء والبائسين، وكان خطيباً مفوّهاً أيضاً.

الأب: يعني.. سترون أنَّ الدكتور مصطفى كان سرَّ أبيه الشيخ حسني، فمن هذا الرجل الفاضل، كان الأسد الهصور مصطفى السباعي.

فقلت وأنا أختلس النظر إلى أبي:

ومن يشابه أَبَهُ فما ظلم.

فابتسم الأستاذ بسام، وقال مشيراً إليَّ وإلى أبي:

ـ وهذا الشبل كان من هذا الأسد.

فضحكت على استحياء ثم قلت:

ـ وكان للشيخ حسني تأثير على ولده مصطفى.

قال الأستاذ بسام:

ـ أجلْ.. فقد توسّم الشيخ حسني في ولده مصطفى خيراً كثيراً، فأكبَّ عليه يعلّمه ويؤدّبه ويهذّبه، ويصحبه معه إلى مجالس الكبار من العلماء والوجهاء، كأنه كان يريده أن يكبر بسرعة، وينضج قبل أوانه.

صادقة: وكان له ما أراد.

الأب: وكان يدرّبه على الخطابة وهو صغير، فكان الطفل أو الصبيّ مصطفى يقف على كرسيّ صغير، ويخطب بأهله.. بأبيه وأمّه وإخوته وأخواته، فيما هم جالسون حول المائدة يتناولون الطعام، أو جالسون يشربون الشاي أو القهوة، يخطب ويخطب ولا يملّ، حتى يصفّقوا له، ويطلبوا منه أن يستريح، بعد أن يروا الإعياء في صوته أو حركاته.

صادقة: يا سلام!.. مثل أخي صادق.

نظرت إلى صادقة في عتاب، ثم قلت، موجهاً كلامي إلى الأستاذ بسام:

ـ عظيم . . ثم ماذا يا سيدي؟

قال الأستاذ بسام :

ـ هذا الطفل صار نسراً . . صار خطيباً مؤثراً ومثيراً، حتى صار ينوب عن أبيه في خطبة الجمعة، في أكبر جامع في مدينة حمص، وهو ابن ثمانية عشر عاماً.

نظرت إلى صادقة وقلت :

ـ أنا ما زلت ابن أربعة عشر عاماً.

بسام : ولكنّ السباعي في مثل عمرك هذا، كان لا يكتفي بالكتب الدراسيّة في المدرسة، بل كان يلتهم ما يقع في يده من كتب، وصحف، حتى حصَّل علماً غزيراً، ووعياً عميقاً لما يجري في بلده سورية، أو في البلدان العربية الأخرى من أحداث.

فقال أبي وهو ينقّل بصره بيني وبين أختي :

ـ أشهد أنّ ولديّ : صادقاً وصادقة يقرآن الكثير من الكتب التي لا يستطيع قراءتها من هم في مثل أسنانهما، وهما على وعي ودراية بما يجري في بلدنا الحبيب، وفي الوطن العربي والعالم الإسلامي أيضاً.

بسام : إذاً . . أنتما تلميذان نجيبان في مدرسة السباعي، وأرجو ألاّ تُعْتقلا كما اعتُقل السباعي أول مرّة، وهو ابن ستة عشر ربيعاً.

قلت في دهشة :

ـ ابن ست عشرة سنة! كيف؟ ولماذا يعتقله الفرنسيون المتحضّرون؟

كنت أظنّ أن اعتقال الأطفال والفتيان والفتيات في بلادنا نحن سكان العالم الثالث عشر فقط.

فضحك أبي وهو ينظر إلى الأستاذ بسام وقال له :

ـ صادق يقول : نحن نعيش في العالم الثالث عشر . . يعود بنا إلى

الـوراء أو ينزل بنا إلى الحضيض عشـر درجات أخرى . . لم يكفهِ أننـا من العالم الثالث فقط .

قال الأستاذ بسام في حزن :

ـ معه حق .

ثم التفت إليّ وقال :

ـ اعتقله الفرنسيون المتحضّرون سنة ١٩٣١م متهمين إياه بتوزيع منشورات تحتجّ على سياستهم الاستعمارية القمعية في المغرب العربي، وتندّد بأساليبهم الغاشمة .

صـادق : يهتمّ بالمغرب العربي، ويوزّع المنشـورات ضدّ المحتليـن الفرنسيين؟

صادقة : لذا، اسمحوا لي يا سادة، أن أطلب من عمي الأستاذ بسام أن يحدّثنا عن هذا الرجل العظيم، دون مقاطعة .

الأب : الحوار أنفع من السَّرد يا بنتي .

صادقة : كما تحبّون . . المهم أن نعرف المزيد عن حياته الخصبة .

بسام : نشأ السباعي، يا صادقة ويا صادق، في ظروف صعبة كانت تحيط بسورية من الداخل والخارج . . فالاستعمار الفرنسي كان يعيث فساداً في سورية الحبيبة، ويذيق الشعب الويلات، ويفرض عليه سياسة التجهيل والتفقير، حتى لا يفكر إلا في لقمة عيشه، بحيث يكفي نفسه وأسرته .

صادقة : إذاً هذه السياسة ليست جديدة، وليست من ابتكار حاكمينا .

بسام : وكان لهذه الظروف آثارها البعيدة في حياة السباعي السياسي الذي تعرّض مراراً للاعتقال في سورية وخارجها .

صادق : كيف؟

بسام : في عام ١٩٣٢م اعتقله الفرنسيون أيضاً بسبب إحدى خطبه المثيرة، وفي عام ١٩٣٤م اعتقله الإنكليز في مصر .

صادق: ما الذي أخذه إلى مصر؟

بسام: سافر إلى مصر من أجل الدراسة في الأزهر، وهناك قاد طلاب الأزهر في مظاهرة عارمة ضدّ الاحتلال الإنكليزي الذي اعتقله مرة أخرى عام ١٩٤١م أثناء الحرب العالمية الثانية، لأن السباعي كان يعمل مع المؤيدين لثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق ضدّ الاستعمار الإنكليزي، اعتقله الإنكليز، ثم أبعدوه إلى فلسطين، واحتجزوه في معتقل (صرفند).

صادق: كم بقي معتقلاً في مصر؟

بسام: ثلاثة أشهر، ثم أفرجوا عنه وعن بعض إخوانه بعد أن تدخل شيخ الجامع الأزهر، أفرجوا عنه، على أن يخرج من مصر، فسلّموه إلى السلطات البريطانية في فلسطين، ووصل إلى غزّة، والدّم ينزف من أنف السباعي من شدّة الحرّ في ذلك اليوم، وسجنوه أربعة أشهر في معتقل (صرفند) ثم أفرجوا عنه وعن بعض إخوانه الذين اعتقلوا معه في مصر، بعد وساطة من بعض أهل فلسطين.

دقَّ جرس الباب، فأسرعت أفتحه، وإذا الأستاذ حسني جاءنا زائراً، ففرح أبي بقدومه، وقال له:

ـ نحن نتحدث عن الأستاذ السباعي رحمه الله، وأنت من محبّيه بل من عشاقه، وتعرف عنه الكثير، فهيّا شاركنا في الحديث عنه.

أبدى الأستاذ أبو معاذ فرحه وقال:

ـ يسعدني أن أضيف إلى معلوماتي معلومات جديدة عن أستاذنا السباعي، وأنت يا أبا صادق من تلاميذه ومن أشدّ المعجبين به، وكذلك الأستاذ بسام، فلعلّكم تضيفون إلى معلوماتي ما يزيدها ثراء، وسوف أشارك عندما أجد مشاركتي مفيدة.

أنا من أشدّ المعجبين بتواضع العمّ حسني، وقد قرأت كلَّ كتبه وأفدت منها الكثير، وكذلك كانت فرحتي كبيرة بحضوره.

قال أبي :

ـ وبعد الإفراج عن السباعي من معتقل (صرفند) يا أبا معاذ؟

قال أبو معاذ :

ذهب السباعي إلى نابلس، وبقي يومين عند أخيه في الله الشيخ مشهور الضامن الذي كان زميله في الأزهر، واعتقل معه، وأبعدوهما مع عدد من الإخوة إلى فلسطين، ثم عاد السباعي إلى الشام، ليعتقله الفرنسيون من جديد.

صادقة : لماذا؟

حسني : خوفاً من أن يثير عليهم الجماهير.. وأخذوا ينقلونه من سجن في حمص، إلى آخر في بيروت، ثم وضعوه في معتقل (الميّة وميّة) وقلعة راشيا بلبنان.

صادقة : وكم استغرق اعتقاله هذه المرة؟

بسام : مدة سنتين ونصف السنة، ذاق خلالها ألواناً من التعذيب والتجويع والأشغال الشاقة، انتقاماً لمواقفه الشجاعة، ولما أشعله في قلوب الجماهير من النقمة على الاستعمار وجرائمه في كل مكان.

وقال أبي :

المستعمر لا يرضى أن يقف أحد في وجهه، ولا يسمح لأحد أن يكشف مخططاته الإجرامية، ويفضح ما تبثّه مدارسه التبشيرية، ولذلك كان للسباعي بالمرصاد.

صادقة : وكان السباعي العظيم له بالمرصاد.

بسام : الحقيقة.. هي أن ظروفاً قاسية مرّت بسورية منذ نشأة السباعي المبكرة، من استعمار وفساد وتخلّف وجهل ومظالم اجتماعية وسياسية.. وبالرغم من صغر سنّه، كان واعياً تلك المظالم والمآسي، ولذلك هبَّ متمرّداً على الواقع السيّئ، ثائراً على المظالم والانحرافات والبدع

والخرافات والاستعمار والتبشير، وكان أول عمل قام به تأليف جمعية سرّية لمقاومة المدارس الأجنبية التبشيرية التي أنشأها الاستعمار الفرنسي وأعوانه وصنائعه، لتنفث سمومها في أولاد الطبقة الغنيّة، وتحبّب إلى طلابها الثقافة الغربية، والأخلاق والعادات الإفرنجية، وتعمل على إبعادهم عن عقيدتهم الإسلامية، وعن ثقافتهم الأصيلة. عمل السباعي على محاربتها، فكان يكتب المنشورات، ويطبعها سرّاً، ويوزّعها ـ مع إخوانه ـ على الناس.

صادق: لذلك اعتقلوه أكثر من مرة.

صادقة: قرأت أن السباعي كان من الإخوان المسلمين، فمتى انتسب إلى هذه الجماعة؟

بسام: سافر السباعي إلى مصر عام ١٩٣٣م لمتابعة دراسته في الجامع الأزهر. وهناك تعرف على الإخوان المسلمين، والتقى الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله. وأُعجب كلٌّ منهما بالآخر، وأحسَّ السباعي أن جماعة الإخوان هي الجماعة التي يبحث عنها، لأنها هي التي يمكنها أن تحمل لواء الدعوة إلى الله، والجهاد في سبيله والعودة إلى تعاليم الإسلام، فانضمّ إليها، وبدأ يعمل ويناضل من خلالها، ويحاضر في مراكزها وفروعها وشُعبها، ويتنقّل بين قراها وبلدانها، يبشّر بأهدافها ومراميها، ويقود المظاهرات باسمها، منددّاً بالاستعمار البريطاني الجاثم على أرض العروبة والإسلام في مصر والعراق وفلسطين والأردن وسواها.

وعندما سكت الأستاذ بسام، تنحنح الأستاذ حسني، ومسح شفتيه بلسانه، ثم قال:

ـ السباعي علم من أعلام الأمّة الإسلامية في العصر الحديث. وأستاذ من أساتذة الحركة الإسلامية الواعية، وداعية من صفوة الدعاة والمرشدين والعلماء، الذين تعالوا على حطام الدنيا، وارتفعوا فوق ترابها وشهواتها.. داعية من أبرز دعاة الإخوان، آمن بالإسلام ديناً ودولة، مصحفاً وسيفاً، منهاجاً وطريقاً وسبيلاً للحياة.. ووقف نفسه وروحه وقلمه وعقله وحياته

وعمره في سبيل الدعوة، والسير على طريق الرسول القائد محمد ﷺ.

وهتفنا جميعاً:

ـ صلى الله عليه وسلم.

رنَّ جرس البيت، فأمرني أبي بإشارة من رأسه وعينيه الواسعتين أن أفتح الباب، فأسرعت أفتحه، وأنا أدعو الله تعالى أن يكون الطارق واحداً من إخوان السباعي ومحبّيه، ليشاركنا فيما نحن فيه، وإذا الأستاذ الكبير أبوهيثم، ومأأدراك ما أبو هيثم، فهو ممن مليء علماً وفضلاً.. وما أظنه إلا وعنده من أخبار السباعي الشيء الكثير.

رحّبتُ به، ثم قدتُه إلى حيث يجلس أبي وضيوفه، وأنا أقول:

ـ جئت في الوقت المناسب يا عمي: فنحن نتحدث عن الدكتور السباعي رحمه الله.

فوقف الأستاذ الكبير في الممر، ونظر إليَّ، وقال في فرح:

ـ أحلى حديث، عن أحلى حبيب.

ثم دلفنا إلى الغرفة، فهبَّ من فيها وقوفاً، مرحّبين بمقدم أستاذنا الكريم، رفيق درب السباعي في جهاده الطويل..

شمخ الأستاذ الكبير برأسه، وانطلق لسانه يثني على السباعي خيراً، ثم قال:

ـ أدرك السباعي مبكراً أنّ طبيعة العمل الإسلامي قائمة على التعاون، فعمد إلى تأسيس عدّة جمعيات إسلامية في سورية.. في حمص خاصة. ثم أكّد اهتمامه بهذا الجانب، عندما كان في مصر، واتصل بحركة الإخوان هناك، تحت قيادة الإمام حسن البنا، إذ وجد في تنظيماتها المُحْكمة، المجال الذي يتطلّع إليه، فما لبث أن ارتبط بها، وشارك في أنشطتها الكثيرة، ومن ثَمَّ عمد إلى مدّ هذا النشاط المنظّم إلى سورية، فأنشأ ـ بالتعاون مع إخوانه ـ الجناح السوريّ ـ لجماعة الإخوان المسلمين.

صادق: في أيّ عام كان هذا يا عمي؟

الأستاذ: في عام ١٩٤٥م واختير مراقباً عاماً لها في سورية.

صادقة: ما معنى مراقب عام يا عميّ؟

الأستاذ: رأس التنظيم العام للإخوان في العالم، يسمى: المرشد العام، وكان الإمام البنا هو أول مرشد للإخوان، وكان المرشد الثاني هو الإمام حسن الهضيبي، وكان المرشد الثالث الأستاذ عمر التلمساني، والمرشد الرابع هو الأستاذ محمد حامد أبو النصر، والمرشد الخامس والحالي هو الأستاذ مصطفى مشهور.

صادقة: حفظه الله.

الأستاذ: أمّا التنظيمات القُطْرية للإخوان، فيأتي على رأس كل تنظيم (مراقب عام). فهناك مراقب عام لإخوان سورية، ومراقب عام لإخوان الأردن، ومراقب عام لإخوان فلسطين، ومراقب عام لإخوان لبنان، ومراقب عام لإخوان أوروبا، وهكذا.

صادقة: يعني الأمين العام في الأحزاب الأخرى.

الأستاذ: يعني الأمين العام.. صحيح.

صادق: كم مرة التقى الدكتور السباعي الإمام البنا يا عميّ؟

الأستاذ: التقاه كثيراً بلا شكّ، في مصر، وفي سورية أيضاً.

صادق: هل زار الإمام الشهيد سورية يا عمي؟

الأستاذ: نعمْ يا بني.. زارها عام ١٩٤٨م.. جاء إلى قطنا ليتفقد كتائب الإخوان الذين كانوا يتدرّبون في قطنا، قبل خوض المعارك في فلسطين.

صادق: هل أفهم من هذا، أن الإخوان في سورية، كانوا يتعانون مع الإخوان في مصر يا سيدي الأستاذ؟

الأستاذ: لمّا زحفت كتائب الإخوان المسلمين من سائر البلاد العربية لنجدة فلسطين، كان التعاون على أتمّه بين الأصل والفرع.

صادقة: تعني بين الإخوان المصريين، والإخوان السوريين؟

الأستاذ: نعم.. كانوا متعاونين في مجال التدريب، وفي ميادين القتال، وفي سائر الميادين.. وكان الأعداء والخصوم يعرفون هذا التعاون، ويتضايقون منه.

وسكت الأستاذ الكبير لحظة كأنه يتذكر، ثم تابع يقول:

ـ مثلاً.. عندما غدر الملك فاروق بالإخوان، وطعنهم في ظهورهم وهم يجاهدون في فلسطين، وبأمر من الإنكليز والفرنسيين والأمريكان، أمر رئيس وزرائه التافه إبراهيم عبد الهادي باغتيال الأستاذ البنا ـ رحمه الله ـ وأمره أيضاً بتعقّب رفيق جهاده الأستاذ السباعي، وكان حينها في القاهرة، من أجل اغتياله أو اعتقاله، استكمالاً للمخطط الاستعماري المرسوم، من أجل التخلص من جماعة الإخوان، التي تشكل خطراً حقيقياً وكبيراً على إسرائيل، ولكنّ الله شاء غير ما أرادوا، فعجزت أجهزتهم القمعية عن الوصول إليه، ونجّاه الله من بين أيديهم، وعاد إلى دمشق، وانطلق يقود المظاهرات الهائلة في شوارع دمشق، نصرة لإخوان مصر.

صادقة: عفواً يا عمي:.. قلتَ قبل قليل: السباعي رفيق درب الإمام الشهيد، فهل تعني أنّ السباعي كان مثل الإمام الشهيد؟

فانبرى أبي يقول، بعد أن استأذن الأستاذ الكبير:

ـ اسمع يا صادق.. واسمعي يا صادقة هذا الخبر، ثم احكموا أنتم.

نشرت جريدة الإخوان المسلمين في مصر في رأس صفحتها الأولى صورة الإمام البنا، وكتبت تحتها: القائد، ونشرت إلى جانبها صورة الأستاذ السباعي، وكتبت تحتها: الجندي. وعندما رأى الإمام البنا هذا، ثار على من نشر الصورتين والتعليق تحتهما، وقال لهم: أنتم لا تعرفون الرجال.

صادقة: يعني؟

الأب: يعني أبى أن يوصف السباعي بالجندية.. كان الإمام البنا يعتبر السباعي قائداً، وقائداً كبيراً، وليس كسائر القادة.

صادق: هذه الحادثة إن دلّت على شيء، فإنما تدلّ على عظمة الإمام الشهيد، ومدى خبرته بالرجال، ومعرفته بالخصائص القيادية التي كان الأستاذ السباعي - رحمه الله - يتمتع بها.

الأب: لا يعرف قدر الرجال إلا الرجال. ولذلك ضمّه إلى الهيئة التأسيسية لجماعة الإخوان المسلمين بمصر.

صادق: يا ليتنا نسمع منكم شيئاً عن جهاد الدكتور السباعي في فلسطين.

حسني: أنا أحفظ بعض ما كتبه مؤرخ النكبة الأستاذ عارف العارف في كتابه القيّم: (نكبة بيت المقدس) عن جهاد الأستاذ السباعي وإخوانه. قال: «اشترك من الإخوان المسلمين السوريين في حرب فلسطين زهاء أربعمئة أخ.. مئة منهم بقيادة الأستاذ الشيخ مصطفى السباعي، وهو أستاذ في الجامعة، والباقون انخرطوا في صفوف جيش الإنقاذ، وقد استشهد منهم أحد عشر شخصاً، وجُرح زهاء خمسين.. وجلُّهم، إن لم نقل كلُّهم، من الأسر المرموقة في سورية، ومن حملة الشهادات المثقفين، اشتركوا في معارك الحي القديم، وفي القسطل، والقطمون. وفي الحيّ الأخير هذا استشهد منهم كثيرون».

ولّما سكت الأستاذ أبو معاذ، استحثّه أبي على الحديث، لأنه مؤرخ فلسطين ورجالات فلسطين، وجهاد المجاهدين في فلسطين، كما أنه من عشّاق الأستاذ السباعي، وممن كتبوا عنه، فاستجاب الأستاذ أبو معاذ وقال:

- قال لي المجاهد عدنان الدبس عن دور الأستاذ السباعي في معارك القدس الهائلة:

«كان السباعي قائدنا في جهادنا، وكان مقرّه في الروضة (مركز القيادة في القدس)، وكان يزورنا باستمرار في مواقعنا التي ندافع عنها في أحياء القدس، ويشجعنا على الجهاد والثبات، ويمدّنا بالذخيرة والسلاح، وكان يشترك معنا في كثير من المعارك، وكان في مقدمة المهاجمين الذين احتلّوا الحيّ اليهوديّ. وكان ـ رحمه الله ـ عندما تكون هدنة بيننا وبين اليهود لجمع القتلى والجرحى، ويطلبون إلينا إرسال قائدنا للتفاوض، كنا نرسل السباعي، لمكانته بيننا، ولقدرته على التفاوض».

فيما كان الأستاذ حسني يتكلم، كان الأستاذ بسّام يقلّب بين يديه صفحات مجلة (حضارة الإسلام) وعندما سكت الأستاذ حسني، قال الأستاذ بسام:

ـ سأقرأ لكم بعض ما كتبه الأستاذ أميل الغوري عن ذكرياته مع الأستاذ السباعي: «شعر المجاهدون بحاجتهم إلى عون المؤمنين المخلصين من أشقائهم العرب، فاستنجدت قيادة (الجهاد المقدس) ببعض المؤسسات والمنظمات والجمعيات الشعبية في البلاد العربية، وكان الشيخ مصطفى السباعي أحد الذين استنجدنا بهم.

«وفي أواخر شهر نيسان ١٩٤٨م وضعت قيادة (الجهاد المقدس) في لواء القدس خُطّة عسكرية لتطهير منطقة القدس من المستعمرات الصهيونية القائمة فيها، وإعادة فرض الحصار على الأحياء اليهودية في مدينة القدس نفسها، واتخذ المجاهدون من قرية (كفر عقب) القريبة من (رام الله) قاعدة للهجوم على مستعمرتي: (عطاروت) و(نفي يعقوب) وتدميرهما، ليصبح طريق القدس ـ رام الله مأموناً للمجاهدين. وعلى الرغم من صعوبة هذه المغامرة، فإنّ المجاهدين كانوا مصممين على القيام بها.

وفي ليلة ٢ أيار ١٩٤٨م، وفيما كانت طلائع المجاهدين تتقدّم نحو المستعمرتين الآنفتي الذكر، فوجئنا بقدوم عدد من الرجال المسلّحين، أكّد لنا الحرس أنهم من العرب، وأنهم يريدون المساهمة في الجهاد، والانقضاض على المستعمرتين. فلما ذهبنا إليهم، وجدنا أنهم (قوّة سورية)

مؤلفة من نحو (١٥٠) رجلاً، جلُّهم من الشبّان، يتحرّقون شوقاً لخوض غمار القتال. وكان على رأس هذه القوة، المرحوم الشيخ مصطفى السباعي في لباس الميدان، متمنطقاً سلاحه للجهاد في سبيل الله. فهلّل المجاهدون وكبّروا، ورحّبوا بإخوان الجهاد أجمل ترحيب».

رفع الأستاذ بسّام رأسه عن المجلة، وطلب منّا أن ننتبه إلى هذه الفقرة.. قال الأستاذ بسام:

ـ ويتابع الأستاذ الغوري رواية هذه الذكرى فيقول:

«وقبيل خوض المعركة الخطيرة، حاولنا إبقاء الشيخ مصطفى السباعي في مقر القيادة، وهو بعيد نسبياً عن أرض المعركة، كما سعيت شخصياً «للاحتيال» على الشيخ مصطفى، وإقناعه بالبقاء في القيادة، للقيام بأعمال خطيرة مهمّة، ولكنّه أبى ورفض، وأصرّ على خوض غمار المعركة، مهما كلّفه الأمر، وقال: إنه لم يحضر من دمشق إلا بغية الاستشهاد في سبيل الله والوطن.

ولمّا لم نستطع ثني الشيخ مصطفى عن عزمه، وافقناه على ما يريد، واخترنا مركزاً يشغله وأترابه، ولكنه لم يقبل ذلك، وصمّم أن يشترك بنفسه في الطليعة، فكان له ما أراد، وخاض الشيخ مصطفى ورفاقه المعركة ببطولة عظيمة، إلى جانب إخوانهم الفلسطينيين، وانتهت المعركة بنصر مؤزّر للعرب».

«وبعد انتهاء المعركة، رجونا الشيخ مصطفى أن يستريح قليلاً فرفض، فعرضت عليه الانتقال إلى القدس للمساهمة في الدفاع عنها، فقال لي: إني لا أقاتل من خلف الأسوار».

وقال الأستاذ بسام، وهو يقلّب صفحات مجلة (حضارة الإسلام):

ـ كانت فلسطين تعيش في عمق أعماق الأستاذ السباعي.. عاشت في ضميره منذ شبابه المبكر، وكان يذكّرنا بها بمناسبة ودون مناسبة.. ما نسيها يوماً في حياته..

ووقف الأستاذ عند صفحة معينة، ورفع رأسه، ولم يرفع عينيه عن المجلة، ثم قال:

ـ كان يعتبرها قضية العروبة والإسلام في هذا العصر، ولذلك أفراد لها باباً خاصاً بها في هذه المجلة الرائعة، أسماه: (الدُّرّة المغتصبة). اسمعوا ماذا يقول، فهو ينادينا.. ما زال يهيب بنا ألاّ ننساها. يقول رحمه الله: «في حياة الأمم، كما في حياة الأفراد، فترات من الشدّة والقسوة، يفرُّ منها ضعفاء الإيمان إلى اليأس، وينهض معها أقوياء الإيمان إلى العمل.. وجراح فلسطين الدامية التي لم تندمل بعدُ في جسم أمّتكم، إن حملت بعضَ القادة والزعماء على إلقاء السلاح، فإنها يجب أن تحملكم على متابعة النضال والكفاح».

ورفع الأستاذ بسام رأسه، دون أن يرفع ناظريه عن الصفحة التي يقرأ منها، ثم قال:

ـ اسمعوا صرخة الحرّ في آذان الأحرار، لتتبيّنوا حقيقة البُغاث:

«هذه فلسطينكم!.. أضاعتها الأطماع الجائعة، والشهوات الظامئة، والغفلة المسترسلة، والأحقاد الصّليبية الكامنة، ولن تكون فلسطين، بعد كلّ هذه المؤامرات، إلا لنا نحن العرب.. نحن المسلمين..

فلسطين لنا:

يوم تُجنّد في سبيلها العزائم والسواعد..

ويوم تُحشد لها الإمكانات والمواهب..

ويوم نحرسها بالسلاح الشاكي، والإيمان اللاهب..

فلسطين لنا:

يوم نعزم أن نرفع رؤوسنا إلى السماء..

ويوم نأبى أن ننهزم، وفي أيدينا اللواء..

ويوم نقول (لا) للطغاة الأعداء . . » .

ورفع الأستاذ بسام رأسه من جديد، ولم يرفع ناظريه عن المجلة، ثم قال :

ـ ثمّ يهيب بنا السباعي العظيم أن نكون كما ينبغي للأحرار أن يكونوا . . اسمعوه يصرخ :

يا شباب ! .

لا تيأسوا فاليأس كفرٌ بالله . .

ولا تردّدوا . . فالتردُّد مفتاح الهزيمة . .

ولا تقفوا . . فالوقوف أول الموت . .

يا شباب ! .

اذكروا فلسطين . . يقظتكم ومنامكم .

واذكروها . . مَغْداكم ومَراحكم .

واذكروها في عبادتكم ورياضتكم .

واذكروها لأطفالكم وأمّهاتكم .

اذكروها . . فهي قلب وطنكم الكبير الواحد .

اذكروها . . فهي طريق الإسلام إلى عاصمته (مكة) .

اذكروها . . فهي ثغر جزيرتكم التي يربض فيها محمد ﷺ .

ياشباب ! . . .

اجعلوا لفلسطين ما تملكون من مال، وما تُرزقون من مواهب، وما تجدون من وقت، وما تفاخرون به من عرض وعقيدة . . .

هذا هو طريقكم الجديد، إلى وطنكم المفقود» .

لم نملك ـ صادقة وأنا ـ ألسنتنا، فانطلقت بالهتاف الخالد: «الله أكبر ولله الحمد».

فردّدت الألسنة الكبيرة خلفنا، والدموع ملء مآقيها: «الله أكبر ولله الحمد».

وقال أبي وهو يمسح دمعاته:

ـ كلما سمعت أستاذنا السباعي، أو قرأت له، تمثَّلَ لي جبلاً من شموخ.. جبلاً من كرامة.. ولذلك كان يكرر لفظة الكرامة في كلّ خطبة، وفي كثير من كلماته الخالدات.

فقال الأستاذ بسّام الذي توقّف عن تقليب صفحات المجلة:

ـ اسمعوا مواقف الكرامة في هذه الكلمة الجريئة.. الحرّة.. الكلمة المقاتلة التي تتصدّى لدول الاستعمار والاستكبار، ولعملائهم وصنائعهم والمعجبين بهم من أبناء أمتنا.. ألقاها في المجلس النيابي في الثالث من آب عام ١٩٥١م بمناسبة تحرّش إسرائيل بجيشنا السوري آنئذ.. اسمعوه يفاخر ويقرر:

«إننا شعب مصمم على أن يموت، أو أن ينال حقَّه بيده، فهو قد كفر بكلّ عدالة تأتيه من الخارج.. لقد كفر بكلّ عدالة تأتي من أولئك الذين يتوسّدون أرائك مجلس الأمن، وهيئة الأمم، والذين لا يستوحون ضمائرهم، وإنما يستوحون أنانيتهم.

وبهذه المناسبة أعلن ما كرّرناه من قبل، أننا يجب أن نفكّر في علاقاتنا بالمعسكر الغربي.. إنّ من واجبنا أن نفكّر بعلاقاتنا بهذه الدول.. إننا جديرون بأن نصون كرامتنا إزاء هؤلاء الذين يستهزئون بكرامتنا وبإرادتنا، ولا أدري إلى متى نسير بإرادتهم، ومتى نفكر في الخروج على تلك الإرادة؟.

وقد يقال: إننا ضعفاء، وإننا لا نملك من الأمر شيئاً، ولكنْ.. لأنْ

نموتَ ونحن نلطم الذي يلطمنا، خيرٌ لنا من أن نموت ونحن نقدّم خدَّنا لمن يريد أن يلطمه، ورقابنا لمن يريد أن يتحكم بها . .

حسني: الله أكبر!.

بسام (متابعاً القراءة): «من الواجب أن نفكر بعد الآن، كيف ينبغي أن تكون علاقاتنا مع هذه الدول، فلا نجاملها، ولا نجعل مصيرنا مرتبطاً بها، ولئن كانوا يظنّون أنّ في هذا التعدّي ما يرهبنا ويخيفنا، فليعلم العالم، أننا شعب لا يخاف الحروب، وأننا أبناء هذا الجيل، قد ولدتْنا أمّهاتنا على لمعان نيران الحروب، وعلى ضوء مدافعها، وعلى بطاح معاركها، وبريق أسنّتها، ونحن أمّة رضعنا حبَّ الحروب من أثداء أمهاتنا، فلن تخيفنا الحروب، ولن ترهبنا النكبات، ولقد تعرّضنا في تاريخنا الماضي كثيراً لمثل هذه النكبات التي تألّبتْ علينا، واستمرت مئات السنين، ثمّ لم ترهبنا، ولم ترجعنا عن عزائمنا».

ثمّ يقول عليه رحمات الله ورضوانه في شموخ إيماني:

«إننا قد وطّنّا النفس على أن نردّ العدوان مهما كان شأنه، فلا يطمع بنا الطامعون من الدول الكبرى، وليعلموا أنّهم في إثارتهم لإسرائيل في هذه الظروف علينا، لا يستطيعون أن يحملونا على الصلح، وإنني أعتقد أنني أعبّر عن حقيقة واقعة، وهي أنهم لم يجدوا في هذه البلاد، ولا في أيّ قطر عربيّ آخر، رجلاً واحداً ترضى له كرامته، وترضى له وطنيّته، أن يرى الصلح مع إسرائيل، أو يقبل به، إلا إذا كان معناه الموت، وإلا إذا كان معناه تسليم رقابنا للجزّارين الأشرار. إن الصلح مع إسرائيل خيانة وطنية، فلا يفكرنّ أحد بأن يحملنا عليها».

تعالت الصيحات والهتافات وكلمات الإعجاب بهذه الجرأة على الدول الكبرى المنحازة لإسرائيل، وعلى صنائعها، ثم قال أبي:

ـ ولذلك حاولوا اغتياله أكثر من مرّة.

الأستاذ: ولكنّ الله ردّ كيدهم في نحرهم، ونجّى الأستاذ من شرورهم.

الأب: يوم كان الساسة والمتزعّمون يغطّون في نوم عميق، كان السباعي ساهراً يفكّر ويخطّط وينفّذ . . يأتيه من يأتيه بعد منتصف الليل، وفي مطلع الفجر، ليأخذ منشورات، أو يتلقى تعليمات، ثمّ ينطلق تحت ستار الليل، محفوفاً برعاية الله، تسبقه وتلاحقه وتحيط به دعوات الشيخ: أن يحفظ جنود الدعوة الأبرار، من عيون الأشرار، وغدر الفجّار . .

الأستاذ: ولذلك تآمروا عليه . . وكنت أحسب أنّ ضمائرهم تستيقظ لينصفوا المجاهد السباعي، فيعترفوا بإساءتهم إليه، وتآمرهم عليه . . بتزوير الانتخابات، وتدّخل أجهزة القمع فيها، من أجل إنجاح مرشحهم، وإسقاط مرشّح الجماهير، ولكنهم لم يفعلوا، وقد مات بعض هؤلاء، وبعض آخر يهمس بهذه المعاني في خجل، ولا يجرؤ على كتابتها وإعلانها، تصحيحاً لتاريخ مزوّر، هم مزوّروه.

حسني: وهل تعتقد أن هؤلاء يتمتعون بجرأة تجعلهم يعترفون بأخطائهم، وهم الذين دمّروا البلاد، وعذبوا العباد، وما زالوا في ركاب تلك الدول التي تأمرهم فيطيعون ويزورون ويفتئتون؟.

صادقة: اللهم دمرّهم - إذاً - ودمّرْ عليهم.

قال الأستاذ بسام، وهو يقلّب صفحات المجلة:

- الحقيقة . . هناك بعض الذين ليسوا من أنصار التوجه الإسلاميّ، والحركة الإسلامية، اعترفوا بفضل السباعي، وقالوا كلاماً لم يستطع غيرهم قول مثله.

فسأل الأستاذ حسني عمّن يعنيهم الأستاذ بسام، فقال الأستاذ بسام:

- اسمع هذه الكلمات، ثم قل لي: من يمكنه أن يقولها؟ اسمع يا أستاذ:

«إنّ الشعور بمرارة الفجيعة، وفداحة الخطب، يزداد على الزمن عمقه واتساعه وامتداده، كلّما كانت شخصية الفقيد عميقة الالتصاق بجذور

المجتمع، واسعة الاتصال بآفاق الحياة، ممتدّة الجنبات في رحاب المعرفة. . والفقيد الراحل(السباعي) من هذا الطراز الإنسانيّ الرفيع: كلّيّ النظرة، قويّ الإحاطة والشمول، متعدّد الجوانب، متشعّب المواهب، رائد. . في الطليعة من روّاد الإصلاح الديني والاجتماعي والسّياسيّ في العالمين: العربي والإسلامي. . حمل زنده راية الدعوة الإسلامية زهاء ربع قرن، دون أن يهن الزند أو يلتوي، ورفع ساعده راية محمد -ﷺ-، فلم يضعف الساعد، وبقيت راية محمد ﷺ خفّاقة تزحم النجوم. . ودعا لسانه الجريء الحرّ المتدفق إلى الوحدة تحت راية القرآن، فَنَدِيَت العربية بالحقّ على لسانه، واعشوشبت المنابر بالمعين الثّر من بيانه، وكان في ذلك كله عزمةً لا تسعها قدرة، وشعاعاً لا يحصره أفق، وحيوية مؤمنة دافقة، صمدت في وجه الشدّة، حتى خجلت الشدّة ذاتها من الصمود. .

حسني: هذا كلام بديع، وأدب رفيع، وإنصاف ما بعده إنصاف.

بسام: إذاً. . اسمع ما يقوله هذا الأستاذ الكبير أيضاً:

«ثمّ قضى الفقيد الكبير كما يقضي الفارس المُعْلَم في قلب المعركة:

كبرياء النصر في عينيه، ودعوة الحقّ بين شفتيه، ووهج العقيدة المؤمنة يعمر جنبيه، ولواء المعرفة مُشْرَع بين زنديه، وهذا الأمل العريض بمستقبل كتائب الإيمان في الأجيال الصاعدة من بعده يملأ شغاف نفسه، ويأخذ بمجامع لبه. .

الأب: الله أكبر!. ما أروع هذا الوصف!.

بسام: ويتابع الأستاذ الكبير حديثه عن السباعي العظيم فيقول:

«فلا والله ما بقيت ريحانة من رياحين الغوطتين إلا تمنّت أن تكون ضفيرة من ضفائر المجد على جبينه، ولا والله ما بقيت مزنة طيبة عطرة من سحائب رياض الفيحاء إلا رَجَتْ أن يُضمَّخ بها جثمانه، أو يُنَدَّى بها ضريحه».

صادقة: يا سلام!. ما أروع هذا الكلام، وما أحلاه!.

الأستاذ: كأنه حديث عاشق.

بسام: ويصفه الأستاذ الكبير وصف العارف به عن قرب، الخبير بأدقّ خصائصه العقليّة والروحيّة والنفسيّة فيقول:

«كان السباعي ـ طيّب الله ثراه ـ رقيق الإهاب، متفتح الذهن، يتكلّم فيشعّ عقله في معانيه، ويشيع ذكاؤه في مراميه، ويسيل شعوره الحيُّ على ألفاظه وعباراته، ويحيا القضية التي يعمل لها بكلّ حواسّه ومشاعره.. بديهة حاضرة، وذهنٌ متوقّد نفّاذ، واطلاع شامل، ومنطق مستقيم، ورجولة بعيدة الغور، سنيّة القصد».

صادقة: الله أكبر.. ما أعرف هذا الأستاذ بذاك العملاق.

بسام (يقرأ): «كان ـ نضّر الله مثواه ـ ذكياً إلى درجة الحكمة، مشبوب العزم إلى درجة المغامرة، طموح النفس فلا يحصر أفقه يأس، ولا يحدّ غايته مطلب، بعيد الهمّة، فلا يُضِلُّه كغيره شارد الخيال، ولا يغرّه كغيره خادع الأمل، كبير القلب، فلا يشوب غرضه سوء، ورث شمائل العروبة الأصيلة، ورث حفظ الكرامة ورعاية الحقّ، والاتّصاف بالأريحية والنجدة، فكان عربيّاً بدمه، مسلماً بخلقه وعقيدته».

الأستاذ: إنه يصف الأستاذ السباعي وصفاً دقيقاً لا مزيد عليه.

بسام (يقرأ): «لقد اعتنق السباعي ـ في رأيي، وهذا ما يجعله عظيماً في عيني ـ عقيدة، وظلَّ أميناً لها بلسانه وقلمه حتى آخر نسمة من نسمات حياته.. عقيدته: أنّ دعوة القوميّة العربيّة يجب أن تقوم على أساس من قيم الإسلام الروحيّة، وتعاليمه الأصيلة، وتراثه الحضاريّ الخالد..».

الأب: سمعت هذا الرأي من العالم العامل الشيخ نايف عباس مراراً، وكان يثني على الدكتور السباعي لأنه كان يقرن العروبة بالإسلام في خطبه ومقالاته.

بسام: ويعلّق الدكتور محمد الفاضل الذي قطفت لكم قطوفاً من

كلمته الرائعة في تأبين الدكتور السباعي ـ رحمه الله ـ وكانا زميلين مدرّسين في كلية الحقوق في جامعة دمشق. . فيقول:

«إن الإسلام كان وسيبقى. . ويجب أن يبقى ظئراً للعروبة: حِماها حِماه، وقيمها مشتقة من قيمه، مستلهمة منه، متساوقة، منسجمة معه».

الأب: لو تبنّى القوميون هذا الرأي، لالتقينا معهم في منتصف الطريق. وكم سمعت هذا الرأي من شيخنا الجليل الشيخ نايف ـ تغمدّه الله بفيض رحمه ـ وكان ينصحنا بتبنّي هذه الفكرة التي كان يراها في الفكر السياسيّ للسباعي رحمه الله رحمة واسعة، وفي فكر الإمام البنا الذي كان يدعو إلى الوحدة العربية، وإلى التعاون الإسلامي.

بسام: اسمحوا لي أن أتابع في اقتطاف ما يتيسر من ثمرات زميل السباعي:

«وثمة عقيدة ثانية ما حاد السباعي عنها، في كلّ ما عرفته من حياته، وهي أنّ الإنسان ما خلق إلا ليكون حرّاً، فمن أقدس واجباته أن يجاهد في سبيل حرّيته بغير هوادة ولا ملل، لا سيما حرية الفكر والضمير. . بيد أنّ ـ هذه الحرية في رأي السباعي ـ يجب أن تُمارَس في إطار من القيم الخلقية والفضائل الروحيّة، فشرف الكلمة يجب أن يُقَدَّم على حرّيتها. . لنخشع أمام هذه العبارة الفذّة من عبارات السباعي. . قال السباعي:

«إنّ الذين يزعمون أنّ من حقّهم أن يقولوا ما يشاؤون باسم حريّة الكلمة، ينسون أنّ شرف الكلمة قبل حريّتها، ولم أجد أمّة تسمح بالخيانة الوطنية باسم الحريّة، ولكنّ نفراً عندنا، يريدون خيانة الشرف الاجتماعي باسم الحريّة، ولو كان عندنا رأي عام واعٍ، لحاكمهم كما يحاكم خونة الوطن في قضاياه الوطنية».

صادق: الله أكبر! ما أعمق هذا الرأي!.

بسام (يقرأ): «ثمّ إنّ عقيدة ثالثة، تكاد تكون صفوة حياة الفقيد الكبير، بل هي جوهر دعوته الإصلاحية التي تُعتبر ـ في نظري ـ امتداداً لدعوة كبار

المصلحين في العالمين: العربي والإسلامي، وتكاد تسلكه في العقد الثمين الذي من بعض لآلئـه: جمال الدين الأفغاني، وعبد الرحمن الكواكبي، ومحمد عبده».

الأب: العقد الثمين أو السلسلة الذهبية هي: الأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا، وواسطة العقد الإمام الشهيد حسن البنا، ثم.. السباعي، وسيّد قطب. رحمهم الله وإخوانهم ومن سار على دربهم، رحمة واسعة.

بسام: يتابع الدكتور محمد الفاضل حديثه عن السباعي العظيم فيقول مخاطباً الحاضرين:

«اسمعوا السباعي ـ تغمّده الله برحمته ـ يعرب عن رأيه فيقول:

«الذين يطمسون وجه الشريعة المشرق بجمودهم، أسوأ أثراً من الذين يطمسونه بجحودهم».

ثم اسمعوا من حكمه الغوالي:

«الذين يلبسون لبوس الدين، ثمّ يستغلّونه، أشدّ خطراً على الدين ممن يكشفون عن وجوههم فيحاربونه».

ويضيف فقيدنا الكبير ـ السباعي ـ:

«مصيبة الدين في جميع عصوره بفئتين: فئة أساءت فهمه، وفئة أتقنت استغلاله.. وتلك ضلّلت المؤمنين به، وهذه أعطت الجاحدين حجّة عليه».

الأب: يا سلام! ما أعمق هذه النظرات!.. كأنه يعيش بيننا الآن.

الأستاذ: ما نراه الآن ونكتوي بناره، رآه السباعي واكتوى بنيرانه.

بسام (يقرأ): «ويبلغ الفقيد الغالي القمّة في الدعوة إلى فهم الإسلام فهماً صحيحاً، وفي التحرّر ممّا علق بالدين في عهود الانحطاط، وما يبعده عن أصالة الرسالة المحمديّة، فيقول:

«حين تضيع معاني الديـن وتبقى مظاهره، تصبـح العبـادة عـادة، والصلاة حركات، والصّوم جوعاً، والذّكر تمايلاً، والزّهد تحايلاً، والخشوع تماوتاً، والعلم تجمّلاً، والجهاد تفاخراً، والورع سـخفاً، والوقار بلادة، والفرائض مهملة، والسّنن مشغلة. .

وحينئذٍ. . يرى أدعياء الدين عسف الظالمين عدلاً، وباطلهم حقاً، وصراخ المسـتضعفين تمرّداً، ومطالبتهم ظلماً، ودعـوة الإصلاح فتنة، والوقوف في وجه الظالمين شراً.

وحينئذٍ. . تصبح حقوق الناس مهدرة، وأباطيل الظالمين مقدّسة، وتختلّ الموازين، فالمعروف منكر، والمنكر معروف.

وحينئذٍ. . يكثر اللصوص باسم حماية الضعفاء، وقطّاع الطرق باسم مقاومة الظالمين، والطغاة باسم تحرير الشعب، والدجّالون باسم الهداية والإصلاح، والملحدون بحجة أنّ الدين أفيون الشعوب».

الأستاذ: صدق السباعي في نظراته العميقة هذه، بل إنّ كلَّ ما أنتجه قلمه الصّنـاع، حافل بما يـؤكّد أنّ صاحبه قد درس تـاريخ أمّته، وأوضاع جيله، واستوعب الخطوط الكبرى لواقع العالم المعاصر، ورصد ذلك كلّه من خلال الرؤية الإسلامية التي تنظر إلى الأشياء بنورالله، فهو طبيب من الطراز النادر، يشخّص الداء كما هو، ثم يصف له الدواء كمايجب. ولذلك تعدّدت جوانب جهاده، ومحاولاته الإصلاحية، ووسائله إلى تحقيقها.

طوى الأستاذ بسام مجلة (حضارة الإسلام) والتأثُّر ظاهر عليه، وقبل أن يضعها في محفظته، استأذنه والدي، وتناولها من يده، ثم بدأ يقلب صفحاتها، ثم نظر في فهرسها، مفتّشاً عن موضوع يهمّه، ثم أشرق وجهه الوضيء وقال:

ـ أمّا أنـا، فسـوف أقرأ بعض العبـارات من كلمة الرثاء البليغة التي دبّجتها يراعة أخيه في الله، ورفيق دربه، ومستشاره، وصفيّ روحه، الأستاذ محمد المبارك رحمه الله رحمة واسعة. . وصفه ـ في بدايتها ـ بأنه كان «علماً

من أعلام الإسلام، ومجاهداً بكل معاني الجهاد، في سبيل الذَّود عن الإسلام، ونشر دعوته، وتوطيد أركانه، وردّ كيد الكائدين عنه».

«فلقد قام أخونا الفقيد ـ عليه الرحمة والرضوان ـ مقاماً في الدعوة إلى رسالة الإسلام، لا يشاركه فيه غيره، فلقد هبط دمشق شاباً تتّقد فيه الحيوية، ووراء هدوئه وأنسه وحيائه قوة البراكين المتفجرة، بعد أن نال حظّه من العلم من كليّة الشريعة في الأزهر، واختصاص القضاء الشرعي، وبعد أن أتمّ تمرين النضال في سجون مصر أيام الإنكليز، وفي معتقلات (صرفند) في فلسطين، ويبتدئ هذا الفتى المناضل حياة جديدة، وتأخذ الحركة الإسلامية في بلاد الشام ـ على يديه ـ شكلاً جديداً، وتخرج عن إطار الحلقات الخاصة، والجمعيات الخيرية، والمحاضرات العلمية، إلى نطاق الجماهير، وتقوم الصلة بين الحركة الإسلامية، وجماهير الشعب».

صادقة: ولذلك تآمروا عليه، فاعتقلوه، وعذّبوه، واضطهدوه ونفوه، وزوّروا الانتخابات ليسقطوه، ثم ليشلّوه ويشلّوا حركته.

الأب: ويشرح الأستاذ المبارك هذه النقطة المهمّة فيقول:

«إن من أبرز ما يتميز به فقيد الإسلام الأخ الأستاذ السباعي رحمه الله، من بين دعاة الإسلام، هو أنه استطاع أن يبثَّ الوعي الإسلاميّ في الجماهير الشعبيّة، الوعي لمبادئ الإسلام وتعاليمه، والوعي لمآسي الإسلام في العصر الحديث، ونكباته مع الاستعمار والإلحاد والصهيونية، بعد أن كانت هذه الجماهير موزَّعة بين فئة المتدينين تديُّناً تقليدياً لا يعرف إلا إقامة بعض شعائر الدين الفردية الظاهرة، دون المشاركة في قضايا البلاد العامة، والكفاح في سبيل تحرير البلاد الإسلامية، مما لحق بها من استعمار وظلم وجهل، وفئات أخرى سادرة غافلة، أو منحرفة عن أهداف أمتها، استهوتها المبادئ الضالة لأنواع من الشعوبيات الحديثة التي جاءت تتصيّد هذه الجماهير، مستغلّة ما كان يحيط بها من أجواء الجهل أو الظلم أو الفقر».

صادق: يا سلام!. هذا تحليل بديع لواقع المسلمين في بلاد الشام، قبيل عصر السباعي العظيم، رحمه الله رحمة واسعة.

الأب: ويقول الأستاذ المبارك:

«استطاع فقيدنا ـ رحمه الله ـ أن ينقل الإسلام الحيَّ النابض الفعّال، الإسلام المحرّر في مثاليته ونضاليته إلى هذه الجماهير، وأن ينقل هذه الجماهير إلى جوّ الإسلام. وبذلك جعل للنضال في سبيل الإصلاح، وللنضال ضدَّ الاستعمار، وللنضال للتحرّر من ظلم الظالمين، من المسيطرين، والظالمين من أيّ لون.. جعل لهذا النضال أساساً من العقيدة والدين، فأمدّه ـ بذلك ـ بقوّة عظيمة جداً، فأزال ما كان في الواقع بين الدين والحياة من بُعدٍ وجفاء في واقع هذه الجماهير المسلمة، وشتّان بين أن يكون الدين صفحات تُكتب في كتاب أو مجلة، فلا تُقرأ، ولا يكون لها صدى في نفوس جماهير الشعب، أو أن يكون منحصراً في فئات صغيرة محدودة العدد، لا تصدر عنها إلا الآهات والحسرات، وهي تنظر إلى عجلة الحياة السائرة سيراً سريعاً في غير مصلحة الإسلام والدين.. شتَّان ما بين هذه الحال، وبين ما استطاع أن يحقّقه ذلك الفتى المؤمن الذي هيّأ الله له من أسباب العلم والنباهة والوعي والحيويّة، ما مكنه أن يجعل هذه الجماهير الشعبية المؤمنة تشارك عن طريق دينها، في تسيير هذه العجلة لمصلحتها ومصلحة الإسلام الذي كان في الماضي البعيد، مناط عزّها، وسبب سعادتها».

صادقة: الله أكبر! ما أروع هذا الكلام، وما أعمقه، وما أدقّه! تابع يا أبي فهذا هو الشَّهد.

ابتسم أبي في حنان وإعجاب، ونقَّل ناظريه بيني وبين أختي صادقة، ثم تابع قراءته في كلام الأستاذ المبارك رحمه الله:

«إنّ من أهمّ ما مكَّنَ الفقيد ـ رحمه الله ـ من اجتياز هذه الخطوة، والانتقال بالحركة الإسلامية إلى هذه المرحلة الشعبية الواسعة النطاق، صفة من أبرز صفاته، وهي قدرته الفائقة على التحسُّس بمشكلات الحياة الراهنة، فلقد كان ـ رحمه الله ـ يعيش في حاضره بعقله ولبّه، وبعاطفته

وقلبه، فإنّ من الناس، بل من كرامهم وفضلائهم من يعيشون في الحاضر بأجسامهم، ولكنهم لا يعون مشكلاته، ولا يتحسّسون بأزماته. لذلك استطاع ـ السباعي ـ أن يجعل علمه وثقافته الإسلامية حيّة، وأن يصل بين تعاليم الإسلام ومشكلات الحياة».

صادق: ولذلك احترقت أعصابه، فيما كان الآخرون يعبثون بكلمة هنا، ووليمة هناك، ويتلهَّون بالتوافه، لأنهم كانوا، وما زالوا، يعيشون على هامش الحركة.

الأب: «وكان ـ السباعي ـ يبصر ويشعر بمرارة ما ران على هذا المجتمع منذ عصور، من مظالم اجتماعيّة تتحمّل وطأتَهَا الكثرةُ الكاثرةُ من جماهير الشعب الساذج المؤمن الذي كان واحداً من أفراده، وما كان عليه أكثر حكام العرب والمسلمين من تبعيّة للدول الأجنبية، وائتمار بأمرها، أو على الأقلّ، من طغيان في السلطة، وإهمال لحقوق الشعب، فارتسمت في ذهنه وفي نفسه صورة واضحة لكبرى مشكلاتنا الفكريّة والاجتماعيّة والسياسيّة، فانطلق يعالجها، مزوداً بثقافته الإسلاميّة، العميقة الواسعة، وحُسن فقهه للدين، وبحسه المرهف، وإخلاصه الشديد، وغيرته التي كانت دونها كلُّ عاطفة من عواطفه، أو ميل من ميوله.. انطلق يعالجها بعمله الدائب، ونضاله المستمرّ في الميادين الاجتماعيّة والسياسيّة والفكريّة، في حماسة نادرة، وجرأة لا تعرف حدّاً، وإخلاص شديد، وصدق واضح، وصراحة لا تعرف إلى المجاملة سبيلاً».

صادق: رائع.. رائع..

الأب: «ومن هنا كانت الخصومات الشديدة التي ثارت حوله، سواءٌ أكان مبعثها الجهات التي أزعجتها خُطّتُه وأهدافُه الإصلاحية، لأنّها تحبط مؤامرتها، أو تكشف سوءاتها، أم كان مبعثها الخلاف في وجهة النظر، وفي طريق الإصلاح، وأسلوب العمل، أم نقصان الوعي لمشكلات الحياة الحاضرة، والبعد عن فهمها، والتحسُّس بها».

الأستاذ: هذا شأن العظماء في كل زمان ومكان.

الأب: «لقد استطاع ـ السباعي رحمه الله ـ أن يعمل في مجال الدعوة إلى الإسلام في المجتمع، فشقّ طريقه إلى جمهور الشعب، وفتح لهذا الجمهور الطريق إلى فهم الإسلام ومبادئه، ووصل ما بين مشكلاتهم الحيويّة، ودينهم، وما بين قضاياهم القوميّة وكفاحهم للاستعمار، ورسالة الإسلام الذي آمنوا به دينًا، وعرفوا شعائره وعباداته، فارتفع بالعامة منهم والخاصّة، إلى مستوى الإسلام عقيدة، ورسالة في الحياة، واستطاع في فترة أخرى من مراحل كفاحه، أن يجعل من السياسة خادماً لمصلحة الشعب، ووسيلة لحلّ مشكلاته، وتحريره من المظالم والمفاسد، في إطار من الدعوة، وفي ضوء مبادئ الإسلام».

سكت والدي عن القراءة لحظة أدار فيها عينيه في وجوه الحاضرين، كأنه يريد أن يطالع أثر ما يقرأ في وجوههم، ولمّا رأى الرضا عمّا يقرأ، تابع قراءته:

«لم يستغلَّ الدين في سبيل السياسة، بل جعل السياسة خادماً للدين، محقّقاً لأهدافه السامية، ووسيلة لخدمة الشعب، وتحريره من الشّرور والمفاسد والمظالم.

«ولقد أعان الأستاذَ الفقيدَ ـ رحمه الله ـ في قوّة مواقفه، وجعله في محلّ الكرامة والتقدير، بحيث لا تناله السهام ـ خصلةٌ لا يعرف حقيقتها فيه إلا من عاشرَه عن قُرْب مدّة من الزّمن، وهذه الخلّة، هي زهدُه فيما يطمع فيه أكثر الناس، ولا سيّما أصحاب المواهب، من المال والمناصب. . فكثيراً ما كان يبذل أكثر ماعنده، ولو ركبه ـ في سبيل ذلك ـ الدَّين الثّقيل، وكثيراً مارفض ماعُرض عليه من رياسات ووزارات، كما يعلم من رافقوه في تلك المجالات، وقد أتيح لي أن أشاهد ذلك بنفسي في فترات من عملنا المشترك».

صادق: أنا يا أبي أسمع بالزهد، وأتمنّى أن أرى زاهداً واحداً.

صادقة: لو عشت في زمن السباعي العظيم، لعرفت معنى الزّهد،

ولرأيت واحداً من الزاهدين الذين نقرأ عنهم، ولا نراهم.

نظر إلينا أبي نظرة عتاب وتأنيب، فقلت:

- معذرة يا أبي.. فأنا أسمع عن عدل الخليفة العظيم عمر بن الخطاب، ولا أرى العدل فيمن يستشهد به، واسمع الخطباء والواعظين يتحدّثون عن الزاهدين من سلفنا الصالح، ولا أرى الزّهد في واحد منهم، أسمع كلاماً كثيراً يعجبني، ثمّ أرى نقيضه في أصحاب ذلك الكلام.

وعندما همّ والدي بالكلام لائماً ومؤنّباً، بادر العمُّ أبو معاذ الكلام فقال:

- أنا مع هذين الشبلين الحبيبين.. المشكلة - ياجماعة - عرضها صادق وصادقة بكلّ بساطة وبراءة.. كلام جميل ولا عمل، أو كلام جميل وعمل قبيح.. المشكلة في هذه الهُوّة بين النظرية والتطبيق..

هدأ والدي، ثمّ اندفع مؤيّداً:

- إنّ مصيبتنا بخطبائنا لا تقلّ عن مصيبتنا بقادتنا وأكثر حكّامنا.. ولو رأى الناس ما يسمعونه منهم في واقع الحياة، لتبدّلت أحوال الناس، ولكنّ كلامهم في وادٍ، وأعمالهم في وادٍ سحيق آخر.

فرحتُ بهذه النتيجة، وأردت تغيير الموضوع، فسألتُ أبي:

- هل تحدّث الأستاذ المبارك عن كتب السباعي يا أبي؟.

ابتسم لي أبي في رقّة وقال:

- اسمع، يا صادق، ما قاله الأستاذ المبارك عن كتب السباعي:

«لقد كانت هذه الفترة - يعني فترة مرضه - من حياته هي فترة التأليف، وخرجت أكثر تآليفه في خلال هذه السنين التي أثقله فيها المرض، وبرّحت به الآلام، فقد طبع كتابه: (السُّنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي) سنة ١٩٦٠م وهذاالكتاب، وإن يكن هو الرسالة التي نال بها شهادة الأستاذية (الدكتوراه) من الأزهر، إلا أنّ فيه إضافات كثيرة، واقتضى إشرافه على

طبعه، وإعادة النظر فيه، بعد أن مضى على تأليفه سنوات طويلة» جهداً ليس هيّناً.

صادق: في أيّ سنة نال شهادة الدكتوراه يا أبي؟.

الأب: سنة ١٩٤٩م. ويقول الأستاذ المبارك:

«وأخرج كتابه: (من روائع حضارتنا) وهو خلاصة لأجمل ما في تاريخنا من منازع إنسانيّة، وسموّ أخلاقي، ومؤسسات حضارية، في عام ١٩٥٩م، وكتب محاضرته التي كان لها صدىً واسع في العالم العربي والإسلاميّ، وكانت مثاراً لأبحاث علمية كثيرة، وهي (اشتراكية الإسلام) في آذار ١٩٥٩م وكانت في (١١٢) صفحة، ثمّ أعاد طبعها في السّنة نفسها في كتاب بلغت صفحاته (١٧٥) صفحة، ثمّ أعاد طبع الكتاب طبعة ثانية، كانت تأليفاً جديداً، فقد زادت صفحاته على (٤٢٠) صفحة».

صادقة: ولكنْ.. لماذا اختار الأستاذ السباعي هذا العنوان؟

أجاب الأستاذ أبو هيثم:

- اختار له هذا العنوان، اجتذاباً لأذهان الجيل الذي زُيّنت له الاشتراكية، حتى باتت في نظره هي الحلم السعيد، فكلُّ حديث عن عدالة الإسلام وتفوّقه على المحاولات البشرية، لا يجد أذناً مصغية إذا لم يحمل إشارة إلى ذلك الإطار السحريّ.

صادقة: أو السرطان السحريّ يا جدّي العزيز.

ضحكنا جميعاً لتعليق صادقة، بينما تابع الأستاذ الكبير يقول:

- إنّ قارئ كتاب (اشتراكية الإسلام) في رويّة وتجرّد، لا يجد أيَّ صلة بين مضمونه وأيٍّ من المذاهب الاشتراكية المعروفة في العالم، وليس له صلة بالاشتراكية خارج نطاق العنوان الذي كان ضرباً من المشاكلة اللفظيّة.. أما مضمون الكتاب فبحث علمي في الحياة الإنسانيّة، وما يحيط بها من مشكلات للفرد والمجتمع، وما أنزل الله من الحلول لكل معضلة

منها، على الوجـه الضامن للتوازن، المحقّق للمصلحـة والأمن، وعلى صورة من الدقّة لا تحلم ببعضها عقول المفكّرين في سائر العصور، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

صادقة: ولكنْ..

الأستاذ: دعيني أكمل كلامي يا ابنتي.. يا حبيبتي..

يعالج السباعي ـ رحمه الله ـ في كتابه هذا الأوضاع البشريّة على ضوء الشريعة الإسلاميّة بعقلية المجتهد الذي يحاول استنباط الحلّ من منابع الوحي، دون تعصُّب لمذهب بعينه، وينقّب في صفحات التاريخ عن المُثل التطبيقيّة التي برز هذا الحلّ من خلالها. وما أحسب ناقداً بقادر على أن يدلّ على حُكم واحد قال به المؤلف، لا يعتمد فيه على أصل من الكتاب أو السُّنّة، أو التطبيق السليم من عصور السيادة الشرعيّة.

نهض أبي، وغادر الغرفة، ثمّ عاد وفي يده كتاب الشيخ محمد الحامد رحمه الله رحمة واسعة: (نظرات في كتاب اشتراكية الإسلام) وبعد أن جلس على كرسيّه قال:

ـ أتيتكم بكتاب العالم الربّاني الجليل الشيخ محمد الحامد، تغمده الله بالرحمة والرضوان، وأريد أن أقرأ لكم بعض ما كتبه في مقدمة كتابه هذا، عن السباعي وكتابه آنف الذِّكر. اسمعوا ما قاله الحامد عن السباعي:

«أصدر أخونا الفاضل العليم الدكتور مصطفى السباعي كتاباً سمّاه (اشتراكية الإسلام) نحا فيه نحواً علميّاً يعرض فيه على الناس ما في الإسلام من رحمة عامة، وتكافل اجتماعي، وإغاثة للضعفاء، وبرّ بالفقراء، ووقاية للبؤساء، من غوائل الجوع والحرمان، والجهل والمرض، يعرض هذا كلَّه في دعوة حارّة إلى التزام تعاليم الإسلام فيه، وقصر الأنظار عليها، دون أن تمتدّ ذات اليمين وذات الشمال، إلى نُظُم أخرى ظاهرة الفساد، واضحة البُطلان، وهي في أنفسها متباينة تبايناً فاحشاً، في بعضها إفراط، وفي الآخر التفريط، وإنّ لنا في شرعنا الإسلامي كفاية وغنى، وإنه تنزيل الله العزيز

الرحيم بخلقه، وقد علم ما يصلحهم فشرعه لهم، وما يفسدهم فحظره عليهم، ولو أنهم عقلوا عنه سبحانه وتعالى ما خالفوا له أمراً.

«كتب الدكتور ما كتب، يقصد الخير، ويتحرَّى الصوّاب، فيمايرى، وقد طالعتُ كتابه، فإذا فيه الكثير الطيّب المعجب الذي يملأ القلب سروراً، والصّدر انشراحاً، بمبانيه البديعة، ومعانيه الرفيعة، وجودة الأداء، ووفرة الاطّلاع، وحُسْن الإقناع، وقد كانت تغمرني أمواج من الفرح حين أستغرق في مطالعة بعض بحوثه، حتى لو أنّه كان أمامي لقمتُ إليه، وقبّلت رأسه، إعجاباً بهذا العلم، وإكباراً لهذا العرض، والتذاذاً بهذا الينبوع الثرّ من البيان العذب».

صادقة: يا سلام! ما أروع هذا الثناء!.

الأب: ويقول الشيخ الحامد:

«ولكن.. أبى اللهُ العصمةَ لكتابٍ غير كتابه المجيد، والجواد قد يكبو، والسيف قد ينبو». ويقول الشيخ الحامد رحمه الله:

«هذا وإني آخذ على فضيلة الدكتور السباعي قبل كلّ شيء، تسمية كتابه باسم (اشتراكية الإسلام)». فما رأيك يا أستاذ؟.

الأستاذ: كلامي السابق عن الأستاذ السباعي وكتابه لا يعني أنّنا ندّعي له العصمة من الخطأ، بل نقول: إنّ كلّ خطأ صدر منه أثناء ذلك، لا يعدو حدود الاجتهاد، الذي يؤجر صاحبه على كلّ حال إن شاء الله. ولعلّ أكبر أخطائه تلك، يتمثل في العنوان الذي وجد فيه المضلّلون كلَّ مسوغات الاستغلال.

كان الأستاذ بسّام يقلب صفحات مجلة الحضارة، وعندما توقّف المتحدثون قال:

ـ اسمعوا ما كتبه الأستاذ المبارك حول كتابي الأستاذين الجليلين: السباعي والحامد، رحمهما الله تعالى:

«وكم رحّب ـ السباعي ـ أحسن الله إليه ـ بالنقد العلميّ البريء، وكم سمعتُه يُثْني الثّناء الجميل على صديقه العالم الجليل الشيخ محمد الحامد، بمناسبة ما كتبه حول موضوع (اشتراكية الإسلام) ويذكر علمه وفقهه، ويشيد بخلقه وورعه، بل إنه قال ـ رحمه الله ـ على أثر ذلك ـ كما سمعتُه منه بنفسي ـ : إنني سأكتب ما يزيل الالتباس الذي حصل عند بعضهم في موضوع اشتراكية الإسلام، وأوضح أنّ الاشتراكيات الحديثة التي نراها، ليست هي الاشتراكية التي وصفتُها، ولا هي من اشتراكية الإسلام في شيء. وكان ـ رحمه الله ـ على وشك كتابة هذا الموضوع حين فاجأه أجله».

حسني: الحقّ أنّ السباعي كان صديقاً للشيخ الحامد، وكانا متحابّين في الله عزّ وجّل، وقد سكنا معاً أيام الدراسة في الأزهر الشريف، وكان للسباعي مسامرات ومحاورات تفيض ذوقاً وعذوبة نفس مع صديقه الصّفيّ الشيخ الحامد. قال له السباعي مرة ـ كما حدّثني أحد تلاميذهما ـ على أثر نكتة ألقاها الحامد:

«يا شيخ محمد، لولا هذه النكات البديعة التي تلقيها، ما كنت تطاق».
لما كان عند الشيخ الحامد من شدّة في الحقّ، أو فيما يراه حقّاً، ولكنه في ردّه على السباعي كان في غاية الأدب والرفق، مع قول مارآه حقاً والدفاع عنه.

صادق: هل نعود إلى كتب السباعي الأخرى يا أبي؟

فتناول أبي مجلة الحضارة، وفتحها وهو يقول:

ـ نعود.. قال الأستاذ المبارك:

«وألَّف ـ السباعي ـ كذلك، وهو تحت وطأة الآلام، كتابه: (المرأة بين الفقه والقانون) وهو يزيد على (٣٣٠) صفحة في أواخر عام ١٩٦٢م وهو كتاب مليء بالأفكار، واسع الأفق، كثير المصادر».

وقال الأستاذ المبارك:

«لقد زوّد فقيدنا ـ السباعي رحمه الله ـ المكتبة الإسلاميّة بثروة

ضخمة، وإنتاج يتميّز من كثير مما يؤلَّف ويُكتَب، فهو عصارة تجريبية لعالم واسع الثقافة، وداعية عَرفَ المجتمع ومشكلاته، وهو نتيجة علم وخبرة وتجربة وتفكير عميق..

«وقد فتح ـ رحمه الله ـ بهذه المؤلفّات آفاقاً واسعة جديدة، وشقَّ للجيل الإسلاميّ الصاعد طريقاً جديدة».

ونظر أبي في الأساتذة الحاضرين وقال:

ـ اسمحوا لي أن أقرأ عليكم ما ختم الأستاذ المبارك كلمته عن الدكتور السباعي:

«لقد كان الأستاذ السباعي أستاذ جيل، وقائد رعيل، وباعث نهضة، وكان خطيب جماهير، ومصلحاً كبيراً، وعالماً باحثاً، وكاتباً أديباً، ومؤلّفاً منتجاً، وقلّما تجتمع هذه الصفات في رجلٍ واحد، وقد جمعها الله فيه».

ثمّ قلّب أبي بعض الصفحات وهو يقول:

ـ وهذا الكلام يذكّرنا بما قاله فضيلة الشيخ مصطفى الزرقا في الشيخ السباعي رحمه الله.. اسمعوا ما قال:

«لا أريد هنا، بهذه الكلمة القصيرة، أن أشيد بشتَّى مآثر فقيدنا العظيم النفس، بل فقيد العالم الإسلامي أجمع، تلك المآثر التي تستند إلى مواهب جمّة، أسبغها الله تعالى عليه، وجمعها فيه، حتى كان بها وحده في قوة جيش من العاملين من مختلف الكفايات والمزايا العلميّة والفكريّة والأدبيّة والنفسيّة والسياسيّة، قلماً، ولساناً، ونشاطاً، وعملاً، وإيماناً، وإخلاصاً لرسالة الإسلام العظمى الخالدة، ومعرفة بالزمن الذي نعيش فيه، وبخصائصه ومقتضياته في أساليب العمل، وبصيرة بالمقدّمات والنتائج، والبدايات والعواقب.

«لا أريد أن أشيد بكل هذه المواهب التي جمع الله فيه منها ما لو فرّقه على كثيرين، لكان لكلّ منهم نصيب يجعل منه شخصيّة لامعة ألمعيّة».

ثمَّ تحدّث الأستاذ الزرقا عن زهد السباعي في حُطام الدنيا، وعن جهوده المبرورة في إنشاء كلية الشريعة بجامعة دمشق، واستلامه عمادتها، مجازفاً بمنصبه في كلية الحقوق، وكيف أن السباعي تقدّم عندما أحجم الآخرون، واعترف الأستاذ الزرقا بشجاعة، أنه ـ أي الزرقا نفسه ـ كان أحد المحجمين، وقد وهب السباعي كلية الشريعة من روحه وحيويّته وعلمه وتوجيهه أثراً لا ينفد، يتوارثه من يتعاقبون عليها أساتذة وطلاباً، دون أن ينال شيئاً على ما يبذل، وهو في أشدّ الحاجة إلى زيادة المرتبة، وعندما قيل له في ذلك أجاب ـ رحمه الله ـ :

«أريد أن أضرب المثل بنفسي، حتّى لا يفكر بالمجيء إلى هذه الكلية إلا من يريد منفعتها، لا منفعة نفسه، وأن أجعل من تضحيتي هذه حاجزاً في وجه من يريدون أن يقفزوا إليها من أجل المراتب التي لا تتيسّر لهم في سواها، أو من يريدون أن يتسلّلوا إليها ليقال إنهم أساتذة جامعيون، وهم ليسوا بذاك».

همستْ صادقة، معلّقة على كلام السباعي:

ـ رحم الله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عندما قال لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذي دُهش لأمانة المجاهدين الذين جاؤوه بأسلاب كسرى: «عففتَ فعفُّوا، ولو رتعتَ لرتعوا».

الأب: وقال الأستاذ الزرقا في كلمته هذه:

«وهكذا تسلّم الأستاذ السباعي عمادة الكلية في المرحلة العصيبة، فسار بها مع اللجنة، يشقّ لها الطريق في خضمّ الأمواج والأعاصير، بمهارة الرُّبّان الخبير، والقائد الشجاع المخلص الذي يبتغي رضى الله قبل هواه، ويريد بناء منزلته عنده، قبل مرتبته في الجامعة.

«كما كان له في تأسيس مشروع موسوعة الفقه الإسلامي الذي تفرّع من كلية الشريعة أيام عمادته، وكان رئيس لجنة الموسوعة.. كان له فيه نشاطه وجهوده الكبرى التي لن تنسى على مرّ الزمن».

بسام: رحم الله السباعي القائل:

«نحن جيلٌ كُتب عليه أن يأكل من دماغه، ويعيش بأعصابه، ويلبس آلاماً لا يجد لها طبيباً».

الأب: رحمه الله، فقد كان يعني نفسه بهذا القول، فهو الذي كان يأكل من دماغه، ويقتات من أعصابه، ويتجرّع من كؤوس أوجاعه.

وقلّب أبي بعض أوراق مجلة الحضارة، ثم قال:

ـ اسمعوا ما يقوله عنه الأستاذ الكبير محمد عبد الرحمن خليفة:

«ورأيت نفسي واقفاً متهيّباً أمام سيرته ـ رحمه الله ـ الحافلة بوافر الإنتاج، وجليل الأعمال، كالواقف على شواطئ البحر الكبير، تهوله عظمته، وتروعه قوّته، وتبهره لآلئه وكريم أصدافه. ولقد كان السباعي ـ رحمه الله ـ كالبحر، عميقاً في فكرته، غنياً في مكنون جواهره، مهيباً في طلعته، جميلاً رائعاً في منظره، سمحاً كريماً لمن طلب رفده، أو مدّ يده، ليغترف من خيره.. فإذا طمع فيه طامع، ولجَّ في خصامه جهول، كان في موج كالجبال، ولجج كقطع الليل البهيم، يدع من ركب متنه تائهاً مغترّاً برقته، وسماحة طبعه، مكبوباً على وجهه، غائراً تحت قدميه».

صادقة: الله أكبر! ما أروع هذا الوصف، لهذا القائد الرائع.

صادق: هذا لأن الرجال يعرفون قيمة الرجال.

وقالت صادقة، وهي تمسح دمعة ترقرقت في عينها:

ـ ما سمعت اليوم عن جدّي العظيم مصطفى السباعي، يجعلني أرثي لحالنا اليوم. وإلا.. فأين القائد الذي فيه بعضُ بعضِ هذه الصفات؟

وقلت أنا:

ـ كانوا يصفون الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ بأنهم مصاحف تمشي على الأرض، وكذلك كان حسن البنا والسباعي رحمهما الله، فهنيئاً لمن رآهما،

وجالسهما، وأخذ عنهما العلم والمعرفة وأساليب الدعوة والجهاد في سبيل الله.

وقال أبي، وهو ينظر إلى الأساتذة الكرام:

ـ اسمحوا لي أن نختم حديثنا عن الأستاذ السباعي، بالكلمة البديعة التي قدَّمها الدكتور يوسف العش ـ رحمه الله ـ عميد كلية الشريعة في جامعة دمشق، آنئذٍ ـ في رثاء السباعي، أول عميد لكلية الشريعة. قال الدكتور العشّ:

«كان ـ السباعي ـ رجلاً.. والرجل قويُّ العزم، يجابه الصّعاب، ولا يأبه للشدائد.

وكان إنساناً رحيماً.. والإنسان الرحيم رقيق القلب، لا يصمد أمام الدَّمع.

وكان خلوقاً.. والخلوق يعاف الشرَّ، ويكره الفساد، ويتجنّب السّوء.

وكان فكِهاً، يحبّ الدُّعابة، ويضحك من المزاح، ويكثر من قصص النوادر.

وكان حاضر البديهة، فلا يغلبه التخلّص من مفاجآت القول.

وكان ذا صوت محبَّب للنفوس، والصوتُ المثير للعواطف إذا تكلّم صاحبُه، تمنّى السامعُ ألّا يسكت.

وكان ذا وجه مشرق منير، تعلوه الابتسامة، ولا يغادره البشر، إلا أنفة أو غضباً.

وكان دؤوباً على العمل، حتّى لكأنه خُلق للعمل وحده.

كان إنساناً في عقله وروحه وخلقه وعمله.

وكان مع الإنسان الإيمان.

بل كان الإيمان هو الأصل الأصيل عنده.

بلغ الإيمان عنده حدّاً كبيراً يدهش المتأمّل.

إنه إيمان يصعد من الأعماق، ويحتلُّ كلَّ جارحة في الجسم، وينتهي إلى العقل، فيتخلّل كلَّ خليّة منه.

السباعي يستمد من الإيمان قوتّه وعزمه، صبره وجلده، علمه وفهمه، حياته ومعيشته.

إذا حدَّثتَه عن الله وجدتَه مسروراً.. ووجدته مضطرباً.. ووجدته خاشعاً، ثم ألفيته يتدفّق في الكلام عن خالق الكون، وكأنه يراه.

ولقد زرتُه مرّة في مستشفى المواساة، فأردتُ أن أواسيه، فالتفتَ إليّ بوجه مصفرّ من ليلة قضاها في الآلام المضنية وقال:

«أشكرك على حسن مواساتك، لكنّك لو تعلم كم أنا راضٍ بحالي لما أشفقتَ عليّ شفقتك التي تبدو عليك. إني بخير نعمة من الله».

«قال ذلك وهو يبتسم ابتسامة هادئة سكينة، فبدت الدهشة على وجهي، فقال»:

«قد تجد قولي غريباً. لكنّي أقول الحقّ، وسأفسّر ذلك..

إني مريض أتألم، ليس في ذلك ريب، وإنك لتشاهد الألم على وجهي وعلى يدي، وفي حركتي. لكن انظر إلى حكمة الله فيّ:

إنّ الله قدير على أن يشلّ حركتي، وقد شلّ بعض حركتي، فانظر ماذا شلّ؟

لقد شلَّ طرفي الأيسر، وأبقى لي الطرف الأيمن، فما أعظم النعمة التي أبقاها لي!.

أكنتُ أستطيع أن أخطَّ بالقلم، لو شلَّ اليمين منّي؟.

إنَّ الله قدير على أن يأخذ بصري، وأنا أحتاج إلى بصري أكثر من أيّ

شيء آخر، لكنّه أبقاه لي، فهل أكثر من هذا لطفاً؟ .

إنّ الله قدير على أن يخمد قريحتي، ولكنّه أبقى لي قدرة الفكر والعقل، فما ألطفه بي! .

إنّ الله قدير على أن يشلَّ لساني، فيمنعني عن الكلام، لكنّه أكرمني ببقاء قدرتي على الكلام، أفليس ذلك منّة منه وعفواً؟ .

لقد قضى الله عليّ بأن تُشَلَّ حركتي في السياسة، فشلَّها، لكنّه أبدلني بها نعمة خيراً منها. . إنه فتح لي سبيل العلم والعمل للعلم. . أكنتَ تراني كتبتُ وألفتُ ما كتبت، لو أن صحتي بقيت على ما كانت عليه قويّة شديدة؟

فما أعظم لطف الله وكرمه ومنّته ونعمته! .

أفيحق لي بعد ذلك أن أشكو وأن أتذمر؟ .

أو لا يجب عليّ أن أشكر الله على نعمائه؟» .

كان الخشوع يثير الدموع في عيوننا جميعاً، وقد تهدّج صوت أبي وهو يقرأ ما كتبه الدكتور العش، ثمّ علا نشيجه، وبعد أن هدأ البكاء، تناول الأستاذ بسام مجلة الحضارة، وتابع يقرأ مما كتبه الدكتور العش :

«كانت في نفس السباعي جذوة متّقدة وُلدت معه يوم ولد، وذهبتْ معه يوم ذهب. . جذوة عجيبة كانت تحت إمرته كلَّ حين. . كان يبدو رجلاً عاديّاً في الساعات التي تكون فيها الجذوة راكنة هادئة، تشعّ على نفسه كالمصباح الذي هدأت شعلته، فما إن يشعر السباعي أنه بحاجة إلى إيقاد تلك الجذوة، حتى يفتح مفتاحها، وإذا هي تعلو ويسري لهبها في كلّ جارحة من جوارحه، فيتغير الرجل، ويبدو على غير ما تعرفه، فإذا هو لهبٌ مشتعل مضطرم. . وبهذه الشعلة المضطرمة يقف أمام الخصم، ويقارع الزمان، ويصبر على الشدائد» .

ثمّ طوى الأستاذ بسام مجلة الحضارة وهو يقول :

ـ اسمع يا ولدي يا صادق، واسمعي يا بنتي يا صادقة. .

خلاصة القول: هي أن أستاذنا السباعي ـ كما قلت وأقول ـ كان داعية موهوباً، ومرشداً مربيّاً، وقائداً مجاهداً، وعالماً فقيهاً، وأديباً شاعراً، وخطيباً ثائراً، ومفكّراً حكيماً، وسياسيّاً صادقاً، ومؤمناً ربّانيّاً، حياتُه سِفرٌ عظيم يزخر بالمفاخر والمآثر والبطولات والتضحيات وجلائل الأعمال التي كان لها آثارها في سورية الحبيبة، وفي الوطن العربي، والعالم الإسلامي.

الأب: بل وعالم الاستشراق، وعالم الثقافة، والمجتمعات الجامعية، ولو تذكّرنا رحلاته إلى أوروبا الغربية، وإلى أوروبا الشرقية، واطّلعنا على محاوراته لكبار المستشرقين ورجال الدين المسيحي، ومقارعته المتحيّفين منهم على الإسلام، المفتئتين على رسول الإسلام ﷺ وأحاديثه الشريفة، وإفحامه إياهم بالحجة العلمية، والمنطق والتاريخ.. أقول: لو عرفنا هذا، لعرفنا أثر الرجل الذي كان يترك بصماته على فكر الشخصيّة التي يحاورها في شموخ المسلم، وكرامة العالم، وجرأة الذي لم يعرف الخوف إلى قلبه سبيلاً في يوم من الأيام.

صادقة: ذكر عمي الأستاذ بسام أنّ السباعي كان أديباً شاعراً، فماذا عن شعره؟.

فاتجهت الأنظار إلى الأستاذ الكبير أبي هيثم، فهو الشاعر المبدع، والكاتب القدير.. اعتدل الأستاذ أبو هيثم في جلسته، ثم قال:

ـ معك حقّ يا صادقة.. ما كان لنا أن نغفل الحديث عن شعر السباعي، فله في هذا الفنّ جولات موفّقات، وبخاصة في الجانبين: الديني والسياسي.

الأب: والذاتي.

الأستاذ: وأذكر أنه أسمعني، بعد الإفراج عنه من سجن الشيشكلي، قصيدة طويلة فيها من التوفيق الشيء الكثير، ولكننا لا نعرف الآن من شعره إلا القليل الذي نشره في مجلة الحضارة، وفي كتابه البديع: (هكذا علّمتني الحياة).

والعارفون لأخلاق السباعي، المتتبّعون لمسارح جهاده، وصلابة عزيمته في الحقّ، وما لقيه من العنت والآلام، ومن إساءات الذين كان من أحقّ الناس ببرهم، يدركون أنه كان ينطلق في شعره من تجاربه الذاتية، ومميزاته الخلقيّة، وبخاصة الذي أرسله مع أنفاسه الأخيرة، كقوله في قصيدة يصف فيها أصناف الناس، ومسلكه بينهم:

دعيني وشأني، ليس عذري بشافع ... لديكِ ولا حالي يعنُّ ببالكِ
وهل يلتقي طيران: هذا محلّقٌ ... تروم جناحاه سماءَ ملائكِ
وذاك مُسِفٌّ حائمٌ فوق جيفة ... على الأرض تدنيه لوطء سنابكِ
وكم بين من يمشي بصيراً بدربه ... تضيء له الأقدار وعْرَ مسالكِ
وبين عمٍ لا يهتدي لطريقه ... يحاط بحجب مظلمات حوالكِ
وشتان ما بين الخليّ من الهوى ... وبين محبٍّ، مُدْنَفِ الجسم ناهكِ
وأنَّى يداني عاقلاً ذا حصافة ... جهولٌ سفيهٌ هالكٌ وابن هالكِ؟

ويقول ـ رحمه الله ـ في قصيدته الطويلة هذه:

دعيني، ففي دنياي همٌّ ومحنةٌ ... وقطعُ طريق في المفاوز شائكِ
وحلٌّ وترحالٌ، وحربٌ وهدنةٌ ... وتعليمُ أستاذ، وعزلةُ ناسكِ
ودنياكِ، ما دنياكِ؟ وهْمٌ وخدعةٌ ... وسعيٌ حثيث نحو شتّى المهالكِ
وفي يُسْرها ضنكٌ، وفي عزّها ضنى ... تثير لأدنى الشيء أقسى المعاركِ
لئن كنتِ عن دنياكِ ترضين إنّني ... سعيدٌ بدنيا الخير لستُ بفاركِ
فإن تسخري منّي، فلستُ بساخرٍ ... وإن تضحكي مني، فلستُ بضاحكِ

إلى أن يقول:

همُ الناسُ بين اثنين: صِيْدٍ تشوقهم ... معاركُ في ساح الهدى، وصعالكِ
دعيني أعيش العمر في غربة الهوى ... ففي الحقّ محرابي، وفيه مناسكي
وفي النُّصح لذّاتي وفي الخير ثروتي ... وفي العلم محرائي، وفيه سبائكي

الأب: وأيّ سبائك. . وأيّ سبائك يا سيدي العالم العظيم.

وانتبهنا إلى صوت نشيج مكبوت مخنوق، وإذا دموع صادقة تغسل خدّيها، فقد كانت ـ مثلنا ـ في قمّة التأثر بهذه الأبيات الرائعة التي علّق عليها أبي بقوله:

هذه القصيدة نفثات مصدور، يعاني من لأواء الحياة ما الله وحده به عليم..

إنه يعاني من أقرب الناس إليه.. ممّن كان أحقّ الناس ببرّهم، كما تفضّل الأستاذ أبو هيثم، ولذلك فاضت قريحته بهذه القصيدة الحزينة.. المغرقة في الحزن، يحاول فيها التخفيف من آلام نفسه التي برَّحتْ بها المواجع.

وقالت صادقة، ودموعها ملء مآقيها:

يا ليتني كنت جارية عندك يا جدّي العظيم، لأتشرّف بخدمتك، وأتقرّب إلى الله بالتخفيف عنك.

الأستاذ: وفي قصيدته الحائية يقول السباعي:

يا سهام الأقدار..

انظروا إلى أمنيات السباعي في مرضه..

يا سهام الأقدار خلّي ثلاثاً هي عندي وجهُ الحياة الصحيحُ
اتركي لي عقلي أفكّر فيه وعيوني أرنو بها وأروح
ويدي تملأ الصحائف علماً وبلاغاً، وبالشجون تبوح

حسني: يا سلام! ما أغلاها من أمنيات.

الأستاذ: وقد استجاب الله رجاءه، فلم يحجب نوره عن بصره ولا عن بصيرته، وأمدّه بالعون، فلم يشلَّ قلمه عن الإنتاج الرشيد المفيد حتى لقي ربَّه الرؤوف الرحيم.

الأب: وفي هذه القصيدة الرائعة يقول:

حسبـــي الله لا أريـــد ســـواه　　　هـو أنسـي، وفـي حمـاه أريـحُ
ربِّ لـولاك مـا استطعـتُ ثبـاتـاً　　　في مسيري، ولا سمتْ بيَ روحُ

وروى أبي عن جدّي أنه سمع الأستاذ السباعي ينشد قصيدته الميميّة الرائعة أمام الحجرة النبوية في حجّ عام ١٣٨٤هـ أذكر منها الأبيات التالية:

يا سائق الظّعن نحو البيت والحرم　　　ونحـو طيبـةَ تبغـي سيِّـد الأمـمِ
إن كـان سعيُـك للمختـار نـافلـةً　　　فسعيُ مثليَ فرضٌ عند ذي الهِممِ
ياسيدي يا حبيب الله جئتُ إلى　　　أعتاب بابك أشكو البَرْح من سقمي
ياسيِّدي قدتمادى السُّقم في جسدي　　　من شدّة السُّقم لم أغفل ولم أنمِ
الأهلُ حوليَ غرقى في رقادهمو　　　أنـا الـوحيـد جفـاه النـومُ مـن ألـمِ
قد عشتُ دهراً مديداً كلُّه عملٌ　　　واليوم لا شيء غير القول والقلمِ
يا سيّدي طال شوقي للجهاد فهل　　　تدعو ليَ الله عوداً عالي العلم؟
تـالله مـا لهفتـي للبُـرء عـن رَغَـبٍ　　　في ذي الحياة، ولا جاهٍ ولا نِعَمِ
وإنمـا طمـعٌ فـي أن يقـال غـداً:　　　لقد هَديتم إلى الإسلام كلَّ عمِ
هيهـات أن تنطـوي للـديـن رايتـه　　　أو يهـزم الكفـرُ دينـاً غيـرَ منهـزمِ
ياربِّ عونَكَ للمرضى ومن نُكبوا　　　يا ربّ أنت ملاذ البائس العدِمِ

حسني: الله الله.. إنه متفائل بانتصار الإسلام، وهو في قمّة الآلام.

الأب: ولاينسى السباعي إخوانه الذين ربّاهم على عينيه، فيدعو لهم:

واحفظ جنودك من سوءٍ يراد بهم　　　لم ينحنـوا لفئـام الغـيِّ من شـمم
تعقَّبـوا الشـرَّ أنَّـى سـار متّجهـاً　　　فـأحبطـوا كيـده دهـراً ولـم يقـم

الأستاذ: آمين يا ربَّ العالمين.. احفظ جنودك الأبرار الأحرار.

الأب:

فـأكـرمُ النـاس مـن كـانـت منيّتـه　　　في حومة الحقّ جَلْداً غير منهزم

وأهـونُ النـاس مـن جـاءت منيّتُـه		خِلْواً من الهمّ أو خِلْواً من الهِمَمِ

واسمعوا صبر أيوب . . شكوى السباعي :

أشكو إلى الله شكوى غير ذي جزع		في شدّة الضُّرِّ وجهي وجهُ مبتسم
يا ربِّ إن طلبتْ نفسي الشفاء، تُرى		أيحمل الخيرُ صفواً غير منصرمِ؟
أم فيه شرٌ يفوق السُّقم من ضررٍ		حتى ترى النفسُ أنّ الخير في السَّقم
مـا فـي قضـائـك ظلـمٌ للعبـاد ولاَ		فيه الإساءة، بل محضٌ من الحِكم

الأستاذ : تسليم كامل لقضاء الله وقدره، ورضى تامٌّ ويقينٌ بعدل الله سبحانه .

حسني : نعمْ تسليم مطلق بعدالة الله في قضائه وقدره .

الأب :

وإنمـا العبـد مـا ينفـكُّ ذا هلـعٍ		ولا يطيــق دوامَ الضُّــرِّ والألـــم
فاحزمْ متاعك، قد تلقاك ذا سفرٍ		عند الفجاءة، واعبده على قدم
إنّ الشقييـن مـن تلقـاهمـو غفـلاً		عن الحساب بلا خوفٍ ولا ندم

وأخيراً يقول، مسلِّماً بحكمة المقادير التي تغيب عن الناس :

هي المقادير، ما شـكٌّ بحكمتهـا		عندي، ولا أنا منها قطُّ في بَرَمِ

صادقة : الله أكبر . . ما أعمق إيمان السباعي ! .

صادق : متى توفيّ الأستاذ السباعي يا أبي ؟ .

الأب : يوم السبت، في الثالث من شهر تشرين الأول سنة ١٩٦٤م .

والتفت أبي إلى الأستاذ الكبير، وطلب منه أن يصف لنا وقع نبأ الوفاة عليه، ويصف لنـا الجنازة الضخمة التي ضمّت الحشود الهائلة من أبنـاء دمشق خاصّة، وأبناء المدن السوريّة الأخرى، وأبناء البلاد العربيّة الذين هالهم انطفاء الشعلة المتوقّدة، فسارعوا إلى دمشق لوداع القائد الذي لا يُشقُّ له غبار .

تحرّك الأستاذ الكبير في مقعده، وفرّت الدموع من عينيه، ثم قال:

ـ يا لها من لحظة، تلك التي تلقيت فيها النبأ الهائل!.. إذ دخلتْ عليّ ابنتي، وأنا غارق في قراءة أخبار الصّحابة من فاتحي العراق، وهي واجفة راجفة، تقول في نبرات خائفة:

«هاتف من دمشق يقول: السباعي مات».

غرقت لحية الرجل الكبير بدموعه، وهالني بكاء الرجل، فعلا نشيجي، وبكى كل من كان في المجلس، وخاصة صادقة، كأنَّ النبأ الفاجع جاء الآن ينعى السباعي العظيم..

وبعد لحظات، استأنف الأستاذ الكبير حديثه:

ولم أعِ ما أفعل، إلا أن أدور في مكتبي على غير هدى، وأنا أبكي وأجأر:

«اللهمّ رحمتك..».

وسكت الأستاذ الكبير لحظة، مسح فيها بقايا دمعه، ثمّ تابع يقول:

ـ قالوا: كلُّ شيء يبدأ صغيراً ثم يكبر، إلا المصيبة، فإنها تبدأ كبيرة ثم تصغر. والواقع، أنّ هذا هو الواقع في كلّ شيء، وفي كلّ مصيبة، إلا مصيبة برجل في زمن قلّ فيه الرجال، واشتدّت إليهم حاجة الرجال!. وهذه الأيام والسنون تتابع على النبأ الفاجع، فما يعتور أثره فتور، ولو زعمنا ذلك، لكذّبتنا الدموع التي لا نستطيع نَهْنَهَتَها كلّما خطر في الجنان أبو حسان، أو ذكرَ آثارَه وأعماله لسان.

سافرت إلى دمشق، ووصلت إليها ظهر اليوم التالي للوفاة، ولم أعرف مكان الجثمان إلا من انقطاع حركة المواصلات في شارع مدحة باشا.. وسرعان ما ابتلعني موكب الجنازة العزيزة، كقطرة الماء لامست السَّيْل الهادر الذي ما لبث أن ملأ سوق الحميدية حتى قلب الجامع الأموي!.. وأبتْ دمشقُ الوفيّة المؤمنة أن تحمل السيّارةُ جسد البطل الذي

طالما هزّ منابرها، وأثار عزائمها، وحفز شبابها لاستعادة مكانتها في خدمة الإسلام، وتحرير أرض الإسلام، فإذا هي تتداول نعشه على الراح حتى المقبرة التي ضمّت من قبله أجساد الأباة من صحابة محمد ﷺ وتابعيهم وتابعي تابعيهم من أعلام الهدى.

وتهدّج صوت الأستاذ الكبير، ثم توقّف عن الكلام، وكانت لحظات مهيبة، ران فيها السكون إلا من أزيز البكاء والأنين، ثم تابع الأستاذ الكبير كلامه:

ـ وفي غمرة الأنين والنشيج، وانطلاقات الأصوات المؤمنة بشعارات السماء، التي وقف السباعي حياته الغالية على تركيزها وتحقيقها، والتي بذل في نصرتها آخر أنفاسه.. وجدتُني أتساءل وأتذكر:

أتساءل عن السرّ الذي يحفز هذه السيولَ من الجموع على تحمّل الحرّ والزّحام طوال ساعات، لا تفارق الموكب الحزين، حتى تودع الثرى جثمان الرجل الذي زحفت لتشييعه من أنحاء القطر السوري، ومن كلّ بلد مجاور اتسع وقته وظروفه للمشاركة في هذا التشييع!.

الحقّ هو أنّ هذه الآلاف المؤلّفة إنما زحفتْ وتعبتْ وصبرت تمجيداً للفكرة التي دفع السباعي حياته كلّها ثمناً لها، وأذاب قلبه الكبير وقوداً لاستبقاء وَهَجها، في إخلاص لله لم يَشُبْهُ مطمعٌ دنيوي، وجهاد للحقّ لم يستهدف سوى تحرير الوطن الإسلامي من سلطان الطغيان أيّاً كان مصدره، وتحريراً للفكر العربي الإسلامي من كلّ استعباد، مهما يكن أثره ومؤثره.

وغلبتني الذكرى.. وألفيتُ القلب المنكوب يتفتح عن مشاهد لاتنسى من حياة السباعي الحبيب.

وخنقت العبرات صوت الأستاذ الكبير، فتطلعت العيون إلى الأستاذ بسام تطلب إليه أن يحدّثها عن الوداع الأخير لذلك الرجل العظيم، فاستجاب لطلبها، وقال:

ـ الحقيقة.. أنّ النبأ المفجع بوفاة الدكتور السباعي قد روّع دمشق،

فوجم كلُّ الذين سمعوه حيارى لا يكادون يصدّقون . . ورُوِّعتْ سورية، كما رُوّع العالمان العربي والإسلامي لهذا الخبر الصاعق . . واهتزّ أثير البرق والهاتف يحمل النبأ الأليم . .

وقد نعى الفقيد الكبيرَ إلى الشعب والعالم الإسلامي، كلٌّ من رابطة العلماء، وجامعة دمشق، وأعضاء الهيئة التدريسية في كليتي الحقوق والشريعة، والهيئات الإسلامية، والشباب المسلم، وآل الفقيد، كما نعتْه الإذاعات العربية والعالمية، مع ذكر نبذة عن حياته وجهاده .

وسُجِّي الجثمان الطاهر بانتظار تشييعه في اليوم التالي، وظهرت الصحف في العالمين : العربي والإسلامي تحمل إلى قرائها الخبر الفاجع . .

وما إن أطلّت شمس اليوم التالي، حتى بدأت الجماهير والوفود التي جاءت من مختلف المحافظات والبلاد المجاورة، تتوافد إلى بيت السباعي، لتلقي النظرة الأخيرة على القائد الراحل، وتودعه الوداع الأخير، ولتشارك في تشييعه إلى مثواه الأخير .

وما إن أزفت الساعة الحادية عشرة من اليوم نفسه، حتى غصّت الشوارع والساحات المحدقة بمنزل الفقيد، بألوف الحاضرين .

وقبل أن يبدأ موكب الجنازة سيره، حيّا الجثمانَ الطاهرَ علماءُ الأمة، وإخوان الفقيد وأصدقاؤه، وألقوا على وجهه المكفَّن بالجلال، نظرة الوداع .

ثمّ بدأ الموكب سيره، تتقدّمه السيارات التي تحمل أكاليل الورود والأزهار بأسماء ممثلي الدول العربيّة والإسلاميّة في دمشق، وبأسماء الجمعيات والهيئات الإسلامية . .

وسار في المقدّمة سفراء الدول العربية والإسلامية، والعلماء، وأساتذة الجامعات، وممثلو الهيئات، وأهل الفكر، والمثقفون، والشباب المؤمن الحزين الذي فقد قائده ورائده . .

وقد ارتفع النعش على أذرع الشباب الذين أثارتهم الفاجعة، فخرجوا

باندفاع على الترتيب المهيّأ لسير الجنازة، وساروا بها في شوارع دمشق الكبرى، بعد أن كان مقرراً أن يكون التشييع بالسيارات إلى مدخل سوق الحميدية، ثم يُحمل من هناك إلى مسجد بني أميّة الكبير، للصلاة عليه . .

وأثناء سير الموكب في شوارع دمشق، فاضت عبرات الجماهير ومشاعرها، وارتفعت أصواتها بالتهليل والتكبير وكلمات الوداع، فكنت تسمع :

«في ذمة الله يا سباعي .

إلى رحاب الله يا سباعي .

لا إلـه إلا الله، والسباعي حبيب الله .

على طريقك يا سباعي موكباً بعد موكب .

نحن على العهد يا رائد الجيل .

اللهمّ إنّا نشهد، وهذه الجموع تشهد، أنّ السباعي أدَّى الأمانة، وبلّغ الرسالة، وسار على طريق رسول الله ﷺ، فدعا الأمّة إلى ربّها، اللهمّ ارضَ عنه فإنّا عنه قد رضينا» .

فهتفتُ وصادقة : الله أكبر ولله الحمد .

وسكت كلُّ من في المجلس، وتكلّمت الدموع في خشوع، ثم استأنف الأستاذ بسام كلامه فقال :

ـ وهكذا توالت الصرخات الباكية المؤثرة التي ترتفع بمعاني الإجلال والوفاء والفجيعة، بينما كان الناس في الشوارع، يبدون كأنّ كلاًّ منهم قد ألمّتْ به المصيبة، حتى الذين وقفوا يتابعون الموكب على جنبات الشوارع، كانت عيونهم دامعة، ووجوههم حزينة واجمة . .

وعند وصول الموكب إلى سوق الحميدية، بادر التجّار إلى إقفال متاجرهم، والمشاركة في المسيرة الحافلة، حتى إذا ما وصلت الجنازة إلى مدخل المسجد الأمويّ، انضمت إليها الجماهير التي كانت تنتظر عند

مدخل المسجد، وفي ساحته الكبرى.

وهنا بلغ الانفعال غايته، وغدا الموقف مؤثراً جداً، وفي هذا الجوّ أقيمت للجنازة صلاة لم تشهدها دمشق منذ زمن طويل، فقد غصَّ المسجد الأمويّ على اتساعه، بألوف المصلّين..

وبعد الصلاة على الفقيد، ارتفع نعش الراحل الحبيب على أكفّ الشباب، الذين أحاطوا به من كلّ جانب، ووسط دويّ الصرخات الباكية، وهتافات الدعوة، وصيحات التكبير والتهليل، خرج النعش المحمول على الأكفّ من باب المسجد الأمويّ الكبير، مخترقاً سوق الحميدية، في تظاهرة مهيبة، ومنه إلى سوق الدرويشية، فباب الجابية..

وعندما تجاوز النعش باب الجابية، كان المشيّعون ما يزالون يتدافعون من المسجد الأمويّ.

الجميع: الله أكبر!.

بسام: ولمّا وصل الموكب إلى مقبرة (باب الصغير) التي يرقد فيها صفوة أهل التقوى والإيمان من العلماء والأولياء، وظهرت تلك الحفرة التي ستضمُّ الجسد الطاهر، بلغ الانفعال ذروته، وانسكبت الدموع من العيون المفجوعة، تروّي التراب الذي سيضمّ الراحل الحبيب، وتعالت الأصوات تسأل الله للفقيد أعلى المراتب في جنات الخلد، وأن يجعله حيث كان يتمنّى، مع سيّد المرسلين محمد ﷺ، ومع إخوانه من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين.. كما تسأل الله الثبات على العهد، وأن يعوّض الأمّة عنه خير عوض..

الأستاذ: اللهمّ يا مقلّب القلوب، ثبّتْ قلوبنا على دينك.

الجميع: آمين.

بسام: وردّدت أصوات الآلاف من الشباب قَسَمَ العهد بالثبات والوفاء للدعوة التي حمل السباعي القائد لواءها..

فهتفتُ: الله أكبر ولله الحمد.

وردّد الحاضرون: الله أكبر ولله الحمد.

صادق: الله غايتنا.

الجميع: الله غايتنا.

صادق: والرسول قدوتنا.

الجميع: والرسول قدوتنا.

صادق: والقرآن دستورنا.

الجميع: والقرآن دستورنا.

صادق: والجهاد سبيلنا.

الجميع: والجهاد سبيلنا.

صادق: والموت في سبيل الله أسمى أمانينا.

الجميع: والموت في سبيل الله أسمى أمانينا.

بسام: ولم تهدأ الهتافات إلا عندما ارتفع صوت أحد الإخوان من وراء مكبّر الصوت، يقدّم الخطباء الذين توالوا على المذياع، يؤبّنون الفقيد الحبيب بكلمات مؤثّرة، يعدّدون فيها بعض مزاياه وشمائله.

سألتْ صادقة، وهي تشرق بدمعها:

كم ساعة استغرق تشييع الجنازة؟

بسام: أربع ساعات، كانت من أشدّ ساعات العمر وطأةً بأحزانها وآلامها وشدّتها على الشباب المؤمن الذي ربّاه القائد السباعي.

الأستاذ: ولكن.. إذا غاب السباعي بجسده عن دنيانا، فهو في قلوب الشباب المؤمن حيٌّ ما دامت الحياة ـ إن شاء الله ـ.

الأب: وذكراه ستبقى خالدة خلود الزمان، تتجدّد بتجدّد الدعاة جيلاً بعد جيل، إلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

حسني: إن شاء الله.. إن شاء الله.

وقال أبي:

ـ قبل أن يسمعنا أستاذنا الجليل أبو هيثم رثاءه لأستاذنا السباعي، أريد أن أسمعكم بعض ما قاله الأستاذ الجليل عصام العطار بأخيه وأستاذه السباعي:

«توفي الأخ الحبيب الجليل العالم المجاهد الداعية الكاتب الخطيب المِصْقَع، أستاذنا الدكتور مصطفى السباعي ـ رحمه الله تعالى ـ وهو مكبٌّ على إعداد كتابه: (السُّنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي) لطبعة جديدة، فمات مجاهداً في ميدان العلم والفكر، مرابطاً على ثغر من أخطر ثغور الإسلام، يدفع عنه عوادي المبشّرين والمستشرقين، والمشكّكين والملحدين، ويكشف عظمته وعظمة أخلاقه وتشريعه وتراثه للعيون والعقول والقلوب، ويذود عن كتاب الله وسُنّة رسوله ﷺ وسيرته، بالإيمان والإخلاص والعلم والمنطق، والحجة البليغة، والعاطفة المتّقدة، والحماسة الملتهبة.. فقد كان أستاذنا السباعي كاتباً، ومؤلفاً، ومحاضراً، ومتحدثاً، وخطيباً رائعاً نادر المثال.. وقد ضمّ قبره نفساً أسمى من النجّم، وعزماً أمضى من السيف، وتاريخاً واسعاً كالبحر، هادراً كالموج، خاشعاً كالصلاة، حافلاً بالعلم والفكر والعمل والجهاد والتضحيات، والصبر الجميل على كلّ ما نزل به من البلاء..».

وتفرّس أبي في وجوه الحاضرين، ليقرأ أثر هذه الكلمات الوضيئة في وجوههم، فطالع فيها إعجاباً ببلاغة الأستاذ عصام، وإعجاباً بوفائه لأستاذه الجليل، وحبّه إياه، وإكباره لمواهبه الفذّة الأصيلة.

ثمّ التفت أبي نحو الأستاذ الكبير أبي هيثم وهو يقول:

ـ وختامه مسك وعبير من شعر أستاذنا وشاعرنا المبدع أبي هيثم.

عدّل الأستاذ الكبير جلسته، وأغمض عينيه في سبحة عاطفية، ثم أنشد:

أبلغُ القول في الرثاء الدموعُ فدعوها تَذُبْ عليه الضلوعُ
ليس كلُّ امرئ يموت أبا حسّان حتى يُلام فيه الجَزوع
رايةٌ من بنود ربّك لولا الجهلُ لم تتخذ سواها الجموع
وحسامٌ قد سلَّه اللهُ فالكفرُ هزيمٌ من هوله وصريع
طُويا فجأة، فمادتْ ديار بجنود الهدى، وجُنَّتْ ربوع
وسألنا، ولم نصدّق.. أحقٌّ؟! فإذا كلُ مَنْ هناك صديع
ولقد طالما ضرعنا إلى الله لدى الحِجْر، والقلوبُ خشوع
ننشد البُرْء للجريح المفدّى بعدما أيأس الأساة فريعوا
واستجيب النداء، فانحسم الداء، وزالت مواجعٌ وصدوع
وأراد الإلـٰهُ للفارس المرموق غير الذي أراد الجميع
قد سألنا له الشفاءَ سريعاً فأتى دونه الحِمام السّريع
والمقادير في يد الله غيبٌ ضاع في تيهه الحكيم الضّليع

كان الأستاذ أبو هيثم يلقي قصيدته في تأثر واضح، وكانت الأبيات مؤثرة في الحاضرين، فكانوا يبدون استحسانهم لها، ويستعيدون الشاعر الكبير بعض أبياتها، ثمّ هبَّ الأستاذ أبو هيثم واقفاً كأنه لم يطوِ عقده الثامن، فهبّ الحاضرون وقوفاً ثمّ ودّعونا وانصرفوا، وعدتُ إلى غرفتي، لعلي أنام لأستيقظ مبكراً، وأذهب إلى صلاة العيد، ولكنْ.. ما كلُّ ما يتمنّى المرء يدركه، فقد جفاني النوم، فقمت إلى المسجّل الذي سجّلت فيه أحاديث السهرة العامرة، وأدرت المفتاح، واستلقيت على سريري، أستمع من جديد إلى أحاديث سهرتنا العامرة.

وفيما كنت مستغرقاً في السماع، وأنا مغمض العينين، سمعت من يهمس باسمي. فتحت عينيّ، وإذا أنا أمام رجل عملاق، جميل الوجه، جميل الشكل، آسر البسمات، عذب النظرات.. نهضتُ إليه مرحّباً به، وقبل أن أنادي أختي، قال لي، وقد ظهرت صادقة التي كانت مختبئة خلفه:

ـ لا تصرخ.. هذه هي صادقة، وهي التي قادتني إليك.

وقالت صادقة في سعادة ومرح، وهي تشير إلى الرجل العملاق:

- هل عرفتَ جدّنا المجاهد العظيم الدكتور مصطفى السباعي؟

فأكببت عليه، أقبّل يديه، وأتطاول على رؤوس أصابعي لأصل إلى وجنتيه، والرجل العملاق ينظر إليّ نظرات حانية، ويمسح على رأسي بكفٍّ كالمخمل أو الحرير.

وقدّمتْ صادقةُ كرسيّاً مريحاً للرجل العملاق، حتى إذا استقرّ عليه قلت له:

- كنت - ياسيدي - حديث السهرة هذه الليلة. . تحدَّثْنا، أو بالأحرى، تحدّث أبي وأعمامي الأساتذة عن بعض مناقبك. . عن أخلاقك السَّمْحة. . عن جهادك المبرور. . عن علمك الغزير، عن السباعي الخطيب العظيم. . عن أخطب العرب. . عن السياسي المحنّك. . عن الداعية الحصيف الحكيم الذي يدعو إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة. . عن الداعية الذي عرف زمانه، واستقامت طريقته. .

مدَّ الرجل العملاق ذراعه المديدة، ووضع ظهر كفّه على فمي وهو يقول:

- على رسلك يا ولدي، فقد فاجأتني بهذه الكلمات، وبتلك الصفات التي أضفيتَها على شخصي الضعيف. . أم أنك نسيتَ أنني حمصيّ؟.

وضحك العملاق ضحكة أحلى من العسل بشهده، ثم سحب يده من فوق فمي وقال:

- أنا هنا لأجيبك وأختك صادقة عمّا يشغل أذهانكم! وعقولكم وقلوبكم. . فاسألوني ما شئتم، وسوف أجيبكم بما أعرف، في صراحة الحماصنة، فلا تؤاخذوني إذا أنكرتم شيئاً من كلامي، وسامحوا جدّكم إذا أخطأ، فكل ابن آدم خطّاء، وخير الخطّائين التوّابون.

قالت صادقة في سعادة غامرة:

ـ هذا التواضع الجمّ، دليل على عظمة صاحبه، فهو خلقٌ قرآنيّ عظيم ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقلت أنا:

ـ ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]. وقد سمعنا الكثير عن مواقف الرجولة التي وقفتَها ياسيّدي، في مواجهة الكفرة والملحدين وأعداء الدين،

كان وجهه يشعّ إيماناً، وكان إكليلٌ من البسمات الوقورات يتوّج شفتيه القرمزيتين، وكان محيّاه يطفح بالنور، عندما قالت صادقة:

ـ لدينا أسئلة كثيرة ومتشعّبة، حول كتبك القيّمة، وتجاربك الحياتية الخصبة، وحول ما يشغل الجيل الجديد من الأفكار الوافدة، والأفكار الدّخيلة التي يبثّها ناسٌ يزعمون أنهم عرب، وأنهم مسلمون، ولكنّ عروبتهم وإسلامهم مجرّد شعارات وادعاءات يكذّبها واقعهم، فهل نبدأ؟.

السباعي: تفضّلي يا بنتي على بركة الله تعالى.

فانبريتُ أنا أسأل قبل صادقة:

ـ ما رأيكم، يا سيّدي، في هذا التقدّم المادّي الهائل في الحضارة الغربية؟

السباعي: من الملاحظ أن مظاهر القلق والاضطراب تتزايد كلما أصبحت وسائل الرفاهية ميسّرة للإنسان. فنسبة الأمراض النفسية في البلاد التي يرتفع فيها مستوى المعيشة، أكثر مما في غيرها من البلاد المتأخرة.

والإحصائيات الأمريكية في هذا الشأن واضحة الدلالة على هذا المعنى.

صادق: هل استفادت الحضارة الغربية من الحضارة الإسلامية؟

السباعي: طبعاً. استفادت الكثير، فالحضارة الغربية نشأت من اتصال الغرب بالحضارة الإسلامية، عن طريق المعاهد العربية في الأندلس والأقطار الإسلامية الأخرى.

صادقة: ما أهمُّ صفات الحضارة الغربية؟

السباعي: الحضارة الغربية مطبوعة بطابعين واضحين:

الأول: طابع الفلسفة اليونانية واتجاهها المادي الوثني.

والثاني: طابع العداء للدين، والحقد على رجاله وسلطانه.

فالأساس الذي قامت عليه الحضارة الغربية أساس مادي بعيد عن روحانية الدين، وتأثيره في نفوس الأفراد والجماهير.

صادقة: ولهذا انحسر الدين في المجتمعات الأوروبية؟

السباعي: نعم.. برغم المحاولات والجهود التي يبذلها رجال الدين هناك، لالتقاط الشباب من الجنسين لصالح الكنيسة.

صادقة: كيف؟

السباعي: من الشائع الآن في أوروبا وأمريكا أنَّ كلَّ كنيسةٍ لها نادٍ يجتمع فيه الشباب والفتيات على الرقص والسمر، وفي الرحلات والاحتفالات.

ولا ننسى الأفلام الدينية التي أخرجتها هوليود بكثرةٍ تلفت الأنظار.

صادقة: وهل أفادت هذه النوادي؟

السباعي: الحقيقة هي أنَّ الزمام قد أفلتَ من أيدي رجال الدين وعلماء الأخلاق والاجتماع عندهم، وأنَّ القطار قد فاتهم، وأنَّ الكارثة تستفحل يوماً بعد يوم، حتى تأتي النهاية الطبيعية لهذه الحضارة.

صادق: هل يريدون أن يعودوا إلى الدين، خوفاً من الشيوعية مثلاً؟

السباعي: لكن الدين الذي يدعون إليه بلغ من الضعف والوهن مبلغاً لا يؤهِّله للوقوف في وجه أحد.. لا الشيوعية ولا غيرها.

ثم إنَّ الشيوعية ثمرةٌ من ثمار هذه الحضارة، وبنتٌ من بناتها المنحرفات، وهي قد زادت في أسواء الحضارة الغربية وأخطارها. وقد

جاءت فلسفة ماركس وأنجلز في القرن التاسع عشر، وهما يهوديان ألمانيان، فزادت الأمور سوءاً، عندما باعدت ما بين الإنسان وبين الاستقرار النفسي والروحي بعداً شاسعاً، فانتزعت منه عقيدة الإيمان بالله واليوم الآخر، وأفقدته الثقة بالقيم الأخلاقية، ولم تستطع إنقاذ أبنائها من حالات القلق والمخاوف النفسية والاجتماعية. بل زادت على ذلك مخاوف أخرى، بما فرضته على شعوبها من خوفٍ على مصائرهم، إن هم انتقدوا الحكم الشيوعي وأساليبه، بل إنَّ على عضو الحزب نفسه أن يكون دائماً متحمِّساً لآراء قيادته العليا، مندفعاً إلى تأييدها اندفاعاً أعمى، وإلا فسوف يلقى مصيره المحتوم.

صادق: يعني أنَّ الشيوعية بإنكارها الله والديانات، قضت على آخر سلاحٍ أو ملجأ يعتصم به الإنسان ضد الخوف والقلق والمصائب والأثرة والعدوان.

السباعي: والاستبداد والإرهاب الشيوعيان الدمويان، جعلا الجماهير الواقعة تحت حكم الدولة الشيوعية، قطعاناً من المواشي البشرية المسلوبة الإرادة، المحرومة من المثل العليا التي يتطلَّع إليها كلُّ مجتمعٍ كريم.

صادق: وهكذا تكون الحضارة الغربية بفرعيها: الرأسمالي والشيوعي، أفقدت الإنسان اطمئنانه واستقراره ومُثله الإنسانية الرفيعة، حين جعلت الرفاه هو المثل الأعلى الذي تستحثّ الخطا نحوه، فإن لم يصل إليه طالبه، عاش شقياً..

السباعي: وإن وصل إليه عاش ملولاً لا ينتهي من ملله إلا بالانتحار.

صادقة: ما هي أبرز أخلاق الغربيين؟

السباعي: النفاق والكذب في ادّعاء الرحمة.. إنهم فقدوا جمال الروح، وجمال الذوق الفطري، وجمال الخُلق.. وإنَّ حضارتهم قد فقدت الشرف والجمال.

صادق: ما تعريف الحضارة؟

السباعي: هي نظامٌ اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي.

صادق: جميل.. وما عناصر الحضارة؟

السباعي: تتألف الحضارة من أربعة عناصر رئيسة هي: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخُلقية، ومتابعة العلوم والفنون.

صادق: وما عوامل التقدم الحضاري؟

السباعي: هنالك أسبابٌ وعوامل متعددة، جغرافية واقتصادية ونفسية كالدين واللغة والتربية.

صادق: وما أسباب انهيار الحضارات؟

السباعي: من أهم أسباب انهيارها: الانحلال الخُلقي، والميوعة الفكرية، واضطراب الأنظمة والقوانين، وشيوع الظلم والفقر، وانتشار التشاؤم واللامبالاة، وفقدان الموجِّهين الأكفياء والزعماء المخلصين.

صادقة: معنى هذا أنَّ الحضارة الغربية في طريقها إلى الانهيار، فمن في رأيك البديل؟

السباعي: ليس هنالك من يستطيع القيام بالدور الحضاري المرتقب إلا أمةٌ واحدة هي أمتنا، ولن يستطيع حمل اللواء لحضارة الغد غيرنا.

صادقة: لماذا؟

السباعي: للأسباب التالية:

أولاً ـ لأننا نحمل عقيدةً هي أرقى العقائد التي تسهم في بناء الحضارات، فهي عقيدة توحيد، أصفى أنواع التوحيد، وأكثره إشراقاً وسموّاً وكمالاً، وهي عقيدة علمٍ تحترم العقل، وتدفعه دفعاً حثيثاً وراء المجهول ليصبح معلوماً.

وهي عقيدة خُلقٍ إنساني معتدل كريم، يتجافى عن الإفراط في الرحمة والتفريط في العدالة، وعن الإفراط في الحبّ والتفريط في الواجب.

وهي عقيدة تشريعٍ يهدف إلى اليسر، ويتوخّى المصلحة، مصلحة الفرد ضمن مصلحة المجموع، ومصلحة المجموع غير مفرِّطٍ بمصلحة الفرد، ومصلحة الأمة ضمن الإطار الإنساني العام، ومصلحة الإنسانية كلِّها من غير محوٍ لفضائل الشعوب وخصائص الأمم، وقضاءٍ على كرامتها.

صادقة: وثانياً؟

السباعي: ثانياً ـ أننا أصحاب روحانيةٍ إيجابية بنَّاءة، روحانية إلـٰهية تلازم الجندي في حربه، والعامل في مصنعه، والعالم في درسه، والفيلسوف في بحثه، والقاضي في محكمته، والموظف في وظيفته، والرئيس في رئاسته.. تلازم كلَّ إنسانٍ في جدِّه وهزله وفي سائر أحواله.. إنَّ نماذجنا الروحية في تاريخ حضارتنا، كانوا يخوضون معركة بناء الحياة بكلِّ ما تتطلبه المعركة من عملٍ وجهد وتضحية وفداء.

صادقة: وثالثاً؟

السباعي: ثالثاً ـ أننا أثبتنا في الماضي قدرتنا على إنشاء مثل الحضارة المرتقبة، رحمةً بالناس، وسموّاً في الخُلق، وعدالةً في الحكم، وإشراقاً في الروح، واقتراباً من المثل الأعلى للإنسان في مختلف عصوره وأطواره.

صادقة: وما دمنا قد استطعنا أن نقيم تلك الحضارة الإنسانية الرائعة في عصور التخلف العلمي والفكري، فإننا أقدر على أن نقيم مثل تلك الحضارة في عصور التقدم العلمي، وانكشاف المجهول من الكون شيئاً بعد شيء.

صادق: أليس في هذا شيءٌ من الخيال المفرط في التفاؤل؟

السباعي: لا.. لستُ خيالياً.. فحوادث التاريخ لا تسير سيراً رتيباً، ومن يدري ماذا سيكون غداً؟ فهذا العالم مليء بالمفاجآت، وقد تقع حادثةٌ

في أقصى الأرض، تؤثر على من في الأرض في الطرف الآخر. لكنَّ هذا لا يمنع من أن نطالب بالتفكير في مستقبلنا تفكيراً مستقلاً، وحوادث التاريخ تصنعها يد الله تعالى، بآراء المفكرين، وصيحات الأنبياء والمصلحين.

صادقة: نريد معرفة خصائص حضارتنا الإسلامية.

السباعي: أستطيع أن أسرد لكم أبرز هذه الخصائص التي تميَّزت بها حضارتنا:

أولاً ـ حضارتنا قامت على أساس الوحدانية المطلقة في العقيدة.

ثانياً ـ حضارتنا ذات نزعة إنسانية، أهدافها إنسانية، رسالتها عالمية، آفاقها متراحبة، والذين أقاموها كانوا من شعوبٍ مختلفة، ولكنها تنضوي تحت راية الأمة الإسلامية الواحدة. أقامها عباقرةٌ خالدون اختلفت أصولهم، وتباينت أوطانهم، قدَّمت فيهم الحضارة الإسلامية إلى الإنسانية أروع نتاجات الفكر الإنساني السليم.

صادقة: وثالثاً؟

السباعي: ثالث خصائص حضارتنا، أنها جعلت للمبادئ الأخلاقية المحلّ الأول في كل نظمها، وسائر ميادين نشاطها، وهي لم تتخلَّ عن هذه المبادئ قطُّ، ولم تجعلها لمنفعة دولة أو جماعة أو أفراد..

صادقة: ورابعاً؟

السباعي: رابعاً ـ حضارتنا تؤمن بالعلم في أصدق أصوله، وترتكز على العقيدة في أصفى مبادئها، فهي خاطبت العقل والقلب معاً، وأثارت العاطفة والفكر معاً، وهذه ميزةٌ لم تشاركها فيها حضارةٌ في التاريخ.

إنَّ الحضارة الإسلامية هي الوحيدة التي لم يُفصَل فيها الدين عن الدولة، مع نجاتها من كلِّ مآسي المزج بينهما، كما عرفته أوروبا في القرون الوسطى.. ليس في الإسلام امتيازٌ لرئيسٍ ولا لرجل دين ولا لشريف ولا لغنيّ.. الكلُّ سواسيةٌ متساوون أمام القانون، والتفاضل بالتقوى والخدمة العامة للناس.

صادقة: وخامساً؟

السباعي: وآخر ما أذكره من خصائص حضارتنا، هذا التسامح الديني العجيب الذي لم تعرفه حضارةٌ مثلها قامت على الدين، وشادت قواعدها على مبادئه، ثم كانت من أشدّ ما عرف التاريخ تسامحاً وعدالة ورحمة وإنسانية.. أنصفْنا الناس قويَّهم وضعيفهم، وعرفنا الفضل لأهله شرقيّهم وغربيّهم.

وسكت الشيخ قليلاً ثم رفع رأسه، وزوى ما بين حاجبيه الأشقرين، وسأل:

ـ مَنْ مثلُنا في التاريخ، عدالةَ حكمٍ، ونزاهة قصد، واستقامة ضمير؟

صادق: لكنْ... ألم يخطئ أجدادنا في التسامح مع ناسٍ لا يقيمون وزناً لهدفٍ نبيل، ولا لقيمةٍ أخلاقية كالتسامح؟

ألم يخطئوا في التسامح مع اليهود ومع الصليبيين ومع سواهم، ممن أذاقونا الأمرَّين، والصاب والعلقم، عندما استغلّوا ضعفنا، فحكمونا بالحديد والنار، وقتلوا ونهبوا وفتكوا واغتصبوا الأرض والعرض.

السباعي: لا يا بنيّ.. لم يخطئ أجدادنا، بل الذي أخطأ هم أولئك الأوباش من حفدة النصارى واليهود والمجوس الذين فعلوا بنا فِعل السفلة المنحطّين.

صادق: والفرع يدلّ على الأصل يا سيّدي.

السباعي: هذا صحيح.. ومع ذلك، فإننا نعتزّ بأنَّ حضارتنا الخالدة كانت، وما تزال، ذات نزعةٍ إنسانية تميَّزت بها من سائر الحضارات الأخرى، فنقلت الإنسانية من جِواء الحقد والكراهية، والتفرقة والعصبية، إلى جِواء الحبّ والتسامح والتعاون والتساوي أمام الله، وأمام القانون، وفي كيان المجتمع، تساوياً لا أثر فيه لاستعلاء عرقٍ على عرق أو فئة على فئة، أو شعب على شعب، أو أمة على أمة.

صادقة: وحضارة الآخرين؟

السباعي: الحقُّ أنها قامت على الجريمة.. تصوّروا أنَّ الصليبيين حينما وصلوا ـ في حملتهم الثانية ـ إلى مدينة (معرة النعمان) قرب مدينة حلب في سورية، قتلوا من أطفالها ونسائها وشيوخها وعجزتها مئة ألف، بعد أن كانوا أعطوهم الأمان.

صادقة: أعوذ بالله من هؤلاء الشياطين.

السباعي: ثم تابع الصليبيون زحفهم نحو القدس، وشدّدوا الحصار على أهلها، وعندما يئس أهل القدس من الدفاع عن مدينتهم، طلبوا من قائد الحملة الصليبية واسمه (طنكرد) الأمان على أنفسهم وأموالهم، فأعطاهم رايته يرفعونها على المسجد الأقصى، ويلجؤون إليه آمنين على كلِّ شيء. ثم دخل الصليبيون مدينة القدس بعد ذلك، ويا لهول المجزرة! ويا لقسوة الإجرام!! لجأ سكان القدس إلى المسجد الأقصى الذي رفعوا فوقه راية الأمان، حتى إذا امتلأ بمن فيه من شيوخ ونساء وأطفال، هجم عليهم الصليبيون، وذبحوهم ذبح النعاج، فسالت الدماء في المسجد حتى ارتفعت إلى ركبة الفرس، وكان عدد المذبوحين في المسجد الأقصى وحده سبعين ألفاً، ثم ذبحوا كلَّ من في القدس، حتى كانت شوارعها تعجّ بالجماجم المحطَّمة، والأذرع والأرجل المقطَّعة، والأجسام المشوَّهة..

صادق: أولاد الأبالسة.

صادقة: هؤلاء ليسوا بشراً.. هؤلاء وحوش، بل الوحوش أقلّ وحشيةً منهم.

صادق: أرجوك يا سيدي لا تحدِّثنا عن رحمة صلاح الدين الأيوبي بهم، بعد أن فتح مدينة القدس، وخلَّصها من أولئك المجرمين، لأنَّ أعصابي لا تحتمل (سماحته ونبله ورحمته) بأولئك الأوباش.

السباعي: ولا أنا..

وسكت الشيخ قليلاً، وقد تصبَّب العرق منه كاللآلئ، ثم قال والانفعال ما يزال يأخذ منه مأخذه:

ـ أما والله لولا أني أؤمن بالمُثل العليا وانتصارها، ولو كنت ممن يُخضعون المبادئ للغايات السياسية، كما يفعل ساسة هذا العصر، لقلت: إنَّ قادة جيوشنا بلغوا في التمسُّك بالمبادئ والمثل العليا حدَّ الغفلة والبلاهة، ولكنهم قومٌ مؤمنون يكرهون أن يقولوا ما لا يفعلون.

وقصة صلاح الدين مع الصليبيين تشبه الأساطير.

صادقة: وأنا لا أحبّ الأساطير.

صادق: ولا أنا.

السباعي: تصوّروا أنَّ الصليبيين الأسبان كانوا أعطوا المسلمين من أهل (غرناطة) بضعةً وستّين عهداً باحترام ديانتهم، ومساجدهم، وأموالهم، وأعراضهم، ولكنهم لم يَرعوا عهداً واحداً من تلك العهود ولم يفوا بذمّة، ولم يعفُّوا عن سفك الدماء، وإزهاق الأرواح، وسلب الثروات، فلم يكد يمضي على سقوط غرناطة اثنتان وثلاثون سنة، حتى أصدر البابا أمره عام ١٥٢٤م بتحويل جميع مساجد إسبانيا إلى كنائس، ولم تمرّ بعد ذلك أربع سنوات أخرى حتى لم يبقَ في إسبانيا (الأندلس) كلّها مسلمٌ واحد.. هذا هو وفاؤهم بالعهود والمواثيق التي كانوا يقطعونها على أنفسهم.

صادق: يا لطيف.. ما أحقدَهم!. وما أغبانا.

السباعي: ثم.. لماذا نذهب بعيداً، وهذه أخلاق الأوروبيين المستعمرين في الحربين العالميتين، وآثار قسوتهم فيهما، وهذه هي أخلاقهم في الشرق العربي والإسلامي ناطقةٌ على مدى القسوة التي تتَّصف بها ضمائرهم في حروبهم وحُكمهم، وعلى مدى النفاق الذي بلغوه حين يعلنون في المحافل الدولية إنسانيتهم ورحمتهم، وهم في حروبهم، وفي مستعمراتهم، وفي البلدان الخاضعة لحكمهم، يعلنون وحشيتهم وضراوتهم.

وإذا كان بعض الناس يعتذر عن فظائع الأوربيين في القرون الوسطى، بأنهم كانوا أُناساً لم تهذِّبهم المدنية بعدُ، فما هو عذرهم الآن، وهم أرباب الحضارة، وأساتذة الدنيا في العلوم والفنون والمخترعات؟.

صادق: إذن.. ما السرُّ في رأيكم يا سيدي؟.

السباعي: المسألة في رأيي مسألة طبعٍ أصيل فيهم يغلب كلَّ تطبُّع وتصنُّع، فالأوربيون لا يزالون يحملون في نفوسهم وطباعهم خصائص أجدادهم الذين كانوا عبارةً عن قبائل وثنيّة متوحّشة، ثم اختبأت هذه الطبائع في العصور الوسطى وراء الدين، فحمَّلته أوزار وحشيَّتهم، وهي تختبئ الآن وراء الحضارة، فتحمِّل (السلامَ والاستقرارَ) و(التمدُّنَ والتهذيبَ) أوزارَ قسوتهم.. إنهم هم في كلِّ العصور.

صادق: ونحن.. ماذا تقول عن الحروب التي خاضها أجدادنا يا سيدي؟.

اعتدل الشيخ في جلسته، وأخرج منديلاً أبيض ناصعاً ونظيفاً من جيبه، مسح به عرق جبهته العريضة المنيرة، وخدَّيه المورّدين، ثم قال:

ـ مبادئ حضارتنا تعلن تحريم الحروب للغزو ونهب الأموال، وإذلال كرامة الشعوب.. الحرب المشروعة عندنا إنما تكون لغايتين اثنتين:

١ ـ الدفاع عن عقيدة الأمة وأخلاقها.

٢ ـ الدفاع عن حرية الشعب واستقلاله وسلامه.

وليست حرية العقيدة هي المطلوبة للأمة التي تعلن الحرب فحسْب، بل عليها أن تضمن حرية العقائد كلّها، وتحمي أماكن العبادة كلّها.. وأروع ما نادت به حضارتنا، أنَّ الدفاع عن الضعفاء المستذَلِّين في الشعوب الأخرى واجبٌ علينا، كما يجب الدفاع عن حريتنا وكرامتنا.

هذه الحرب التي تعلَن للدفاع عن العقيدة وعن الحرية والسلم، هي

الحرب المشروعة التي توصل إلى الله، وتمنح الجنة لشهدائنا، هي الحرب التي وصفتها حضارتنا بأنها حربٌ في سبيل الله، وما عداها حرب في سبيل الشيطان والفساد والطغيان، وما أروع قول الله تعالى في المقارنة بين هاتين الحربين:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

وإذا كانت هذه هي الغاية من حروب حضارتنا، لم يجزْ لها حين تعلن الحرب في سبيل الحق والخير، أن تنقلب إلى أداةٍ تصنع الباطل والشرّ. ومن أجل ذلك، كان من مبادئ حضارتنا في الحرب، أن لا تقاتل إلا من يقاتلها ويعتدي عليها، وإذا قامت الحرب، كان علينا أن لا ننسى مبادئنا، فالحرب الإنسانية الخالصة لله، يجب أن تظلّ إنسانيّةً في وسائلها، وعند اشتداد وطيسها. ومن هنا جاءت الوصايا التي لم يسبق لها في التاريخ مثيل.

صادقة: أيُّ وصايا؟.

السباعي: وصايا الخلفاء والقادة.. اسمعوا مثلاً وصية الخليفة أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه، لقائده أسامة بن زيد وجنده:

«لا تمثِّلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرةً مثمرة، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة. وسوف تمرُّون بأقوامٍ قد فرَّغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرَّغوا أنفسهم له».

صادقة: الله الله!. ما أعظم الإسلام، وما أعظم رجاله!.

السباعي: هذه هي الحرب في سبيل الله، وتلك هي مبادئنا فيها، وأخلاقنا الحربية.. إنها عدلٌ ورحمة ووفاء.. ولكن.. لا يكفي هذا ـ في رأيي ـ للإشادة بروح حضارتنا المسالمة في الحرب، فالمبادئ وحدها ليست دليلاً على سموّ أمةٍ وإنسانيتها، ولطالما رأينا أمماً وأحزاباً تحمل للناس أرفع المبادئ، وهي تعيش معهم في أقساها وأخسّها وأبعدها عن

الإنسانية والرحمة . . ولو أردتُ أن أذكر لكم مئات الشواهد على سموِّنا في حروبنا، وعلى إنسانيتنا لفعلت، ولاحترقت أعصابكم من ذِكر بعضها، كفعل البطل العظيم صلاح الدين.

صادق: لا أريدها يا سيدي.

صادقة: ولا أنا.

صادق: إذن . . دعنا ننتقل إلى سواها . .

السباعي: أختم هذه المفارقة بين حضارتنا الحربية وحضارة الغرب المستعمر القاسي المدمِّر بهذين البيتين المعبّرين عن تلك المفارقة، قال الشاعر العربي:

ملكنا فكان العفوُ مِنَّا سجيَّةً فلمّا ملكْتُم سالَ بالدمِ أبطحُ
وما عجبٌ هذا التفاوتُ بيننا فكلُّ إناءٍ بالذي فيه ينضحُ

صادقة: بيتان جميلان لخَّصا القضية كلَّها.

السباعي: دعونا ننتقل إلى (الرفق بالحيوان) فجمعيات الرفق بالحيوان ممّا يفاخر به الغرب القاسي في هذه الأيام، أمّا قبل العصر الحديث فلم يكن الغرب يرى الحيوانَ يستحقّ شيئاً من الرفق أو الرحمة به. ولا تزال بعض الأمم المعاصرة تتلهَّى بقتل الحيوان في أعيادها وأفراحها ورياضتها.

صادق: ونحن؟.

السباعي: هنا تبرز حضارتنا في مبادئها وواقعها بثوبٍ من الرحمة والشعور الإنساني المرهف الذي لم تلبسه حضارةٌ من قبلها، ولا أمةٌ من بعدها حتى اليوم. فالرفق بالحيوان والرحمة به ـ في حضارتنا ـ رحمةٌ تلفت النظر، وتدعو إلى العجب والدهشة.

صادقة: نريد شيئاً من التفصيل.

السباعي: أول ما تعلنه مبادئ حضارتنا في مجال الرفق بالحيوان، أن تقرِّر أنَّ عالم الحيوان كعالم الإنسان، له خصائصه وطبائعه وشعوره. يقول

الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨]. فله حقُّ الرحمة والرفق كحقِّ الإنسان، بل إنَّ الرحمة بالحيوان قد تُدخل صاحبَها الجنّة، كما أنَّ القسوة على الحيوان تُدخل النار.

صادقة: يا سلام!.

السباعي: والفقهاء المسلمون يقرِّرون من أحكام الرحمة بالحيوان ما لا يخطر بالبال.

صادقة: مثل ماذا مثلاً؟.

السباعي: إنهم يقرِّرون ـ مثلاً ـ أنَّ النفقة على الحيوان واجبةٌ على مالكه، فإن امتنع عن الإنفاق عليه، أُجبر على بيعه أو تسييبه إلى مكانٍ يجد فيه رزقه ومأمنه، أو ذبحه إذا كان مما يؤكل.

بل ذهبوا إلى ما هو أبعد من ذلك.. فقال بعضهم: إذا لجأتْ قطةٌ عمياء إلى بيت شخصٍ، وجبتْ نفقتها عليه، ومنعوا تحميل الحيوان أكثر مما يطيق، وذكروا مقدار ما يستطيع البغل والحمار حمله.. فهل في حضارات الدنيا مثل حضارتنا؟.

صادقة: لا والله!.

السباعي: لقد كان الخلفاء يذيعون البلاغات العامة على أفراد الشعب، يوصونهم فيها بالرفق بالحيوان، ومنع الأذى عنه، والإضرار به. وأقاموا المؤسسات الخاصّة بالرفق بالحيوان، ووقفوا الأوقاف الخاصة بتطبيب الحيوانات المريضة، وأوقافاً لرعي الحيوانات المسنَّة العاجزة، ترعى فيها إلى أن تموت، وهناك أوقافٌ للقطط تأكل منها وترعى وتنام ولا تتحرّك إلا للرياضة والنزهة.

صادق: يا سلام! ما أروع هذا!.

صادقة: وماذا عن المؤسسات الخيرية الأخرى يا جدي؟.

السباعي: إذا أردتُ أن أفيض في هذا المقام، فسوف أحدِّثكم ساعاتٍ طوالاً، فهل يسمح وقتكما بذلك؟.

نظرتُ إلى أختي صادقة، ثم نظرتُ إلى الشيخ الجليل وقلت:

ـ باختصار يا سيّدي إذا سمحت.

السباعي: أمّتنا بلغت في هذا المجال الذروة التي لم يصل إليها شعبٌ من قبلها على الإطلاق، ولم تلحق بها من بعدها أمةٌ حتى الآن؟.. فالبطل العظيم صلاح الدين الأيوبي أنفق أمواله كلَّها على جهات البرّ، وملأ البلاد الشامية والمصرية بالمؤسسات الخيرية، من مساجد ومدارس ورباطات وغيرها، دون أن يسجّل اسمه على واحدةٍ منها، بل كان يسجّل عليها أسماء قوّاده ووزرائه وأعوانه وأصدقائه.

صادق: هذا غاية ما يكون من التجرّد عن حظوظ النفس في أعمال الخير.

السباعي: إننا أقمنا مؤسساتنا الاجتماعية من أجل الخير والتكافل الاجتماعي بشكلٍ يبعث على العجب والدهشة، ويدلّ على أنَّ النزعة الإنسانية في أمتنا كانت أشمل وأصفى وأوسع أفقاً من أيِّ نزعةٍ إنسانية لدى الأمم الأخرى.

فمن مبادئ حضارتنا في هذا الميدان، أنَّ الإسلام ينادي بالدعوة إلى الخير نداءً ينهزم معه ـ في النفس الإنسانية ـ بواعث الشحّ ووسوسة الشيطان في التخويف من الفقر، فيقول القرآن العظيم، بعد الحثّ على الإنفاق:

﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

ويعمم الدعوة إلى الخير على كلِّ مقتدر، بل على كلِّ إنسان، فقيراً كان أو غنياً، أما الغنيّ، فيفعل الخير بماله وجاهه، وأما الفقير فيفعل الخير بيده وقلبه ولسانه وعمله، ولن تجد في الإسلام إنساناً لا يستطيع أن يجود في ميادين البرّ والخير.

صادق: هذا كلامٌ عظيم يا سيّدي.

السباعي: وانظروا إلى هذه الفكرة الرائعة.. ما دام الإنسان أنانياً يحبُّ نفسه قبل كلِّ شيء، فإنَّ القرآن العظيم بادره بالأسلوب المناسب الذي يؤثِّر في النفس الإنسانية، بحيث يسخو البخيل، ويعطي الشحيح، ويفرِّق المال على النـاس، من حيث يمنعه أولاده وأقربـاؤه، يقول الله تعالى في قرآنـه العظيم:

﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

ويقول:

﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ [فصلت: ٤٦].

صادق: صدق الله العظيم.

صادقة: ما أروع هذه الفكرة يا جدي الجليل!. لكن.. ألا تذكر، يا جدي، بعض تلك المؤسسات الخيرية، غير ما ذكرتَ لنا؟.

السباعي: من تلك المؤسسات الخيرية، يا بنيتي ويا ولدي، بناء الخانات والفنادق للمسافرين المقطوعين والفقراء، ومنها التكايا والزوايا التي ينقطع فيها من شاء للعبادة، ومنها بيوتٌ خاصة للفقراء يسكنها من لا يجد ما يشتري به داراً أو يستأجر، ومنها السقايات، أي تسبيل الماء في الطرقات العامة للناس جميعاً، ومنها المطاعم الشعبية التي كان يفرّق فيها الطعام من خبزٍ ولحم وحساء (شوربة) وحلوى.

ومنها بيوتٌ للحجاج في مكّة المكرّمة ينزلونها حين يفدون إلى بيت الله الحرام. وقد كثرت هذه البيوت حتى عمَّت أرض مكّة كلَّها، وأفتى بعض الفقهاء ببطلان إجارة بيوت مكة في أيام الحجّ، لأنها كلَّها موقوفةٌ على الحجَّاج.

صادق: الله أكبر.

السباعي: ومنها حفر الآبار في الفلوات لسقي الماشية والزروع

والمسافرين، فقد كانت كثيرةً جداً بين بغداد ومكّة، وبين دمشق والمدينة المنوّرة، وبين عواصم البلاد الإسلامية ومدنها وقراها، حتى لا يتعرَّض المسافرون لخطر العطش.

صادق: الله أكبر.

السباعي: ومنها أمكنة المرابطة على الثُّغور لمواجهة خطر الغزو الأجنبيّ على البلاد، فقد كانت هنالك مؤسساتٌ خاصة بالمرابطين في سبيل الله، يجد فيها المجاهدون كلَّ ما يحتاجون إليه من سلاحٍ وذخيرة وطعام وشراب.

صادق: لا شكّ، يا سيّدي، أن كان لهذه الرباطات آثارها الكبيرة في صدِّ غزوات المعتدين من الروم والصليبيين.

السباعي: وكان يتبع تلك الرباطات، وقفُ الخيول والسيوف والنّبال، وأدوات الجهاد، على المقاتلين في سبيل الله.

صادق: ولا بدَّ أن يكون لهذه الأوقاف آثارها الكبيرة في رواج الصناعة الحربية.

السباعي: أجل يا بنيّ.. فقد قامت مصانع كبيرة لها في بلادنا، حتى كان الصليبيون في الحروب الصليبية، يأتون إلى بلادنا أيام الهدنة، ليشتروا منّا السلاح.

صادق: ليقاتلونا به؟.

صادقة: وهل كان التجار يبيعونهم؟.

السباعي: التجار أصناف، يا بنيتي، منهم الصالح ومنهم الطالح. الصالحون ما كانوا يسمحون لأنفسهم ببيعهم أيَّ قطعة سلاح، مهما غالوا في ثمنها.

صادق: وأما التجار الطالحون الذين رُكِّب الطمع والجشع وحبّ المال في نفوسهم المريضة، فكانوا يبيعونهم بلا أدنى شكٍّ عندي.

السباعي: ولهذا كان العلماء يفتون بتحريم بيع السلاح للأعداء.

صادق: الغريب ياسيّدي أنَّ الأمر انقلب علينا، فصرنا نستورد السلاح ونشتريه بأقوات شعبنا، وبشروطٍ مذلَّة لنا، من الصليبيين الجدد السائرين في ركاب الصهيونية الخسيسة.

السباعي: وكان هناك أوقافٌ خاصة يعطى ريعها للمجاهدين، حين تعجز الدولة عن الإنفاق عليهم.

صادق: وبذلك كان الجهاد ميسَّراً لكلٍّ من يريده ليبيع حياته في سبيل الله، وليشتري بها جنّةً عرضها السماوات والأرض.

السباعي: ومن المؤسسات الاجتماعية ما كانت وقفاً لإصلاح الطرقات والقناطر والجسور، ومنها ما كانت للمقابر، يتبرَّع الرجل بالأرض الواسعة لتكون مقبرة. ومنها ما كان لشراء أكفان الموتى الفقراء، وتجهيزهم ودفنهم.

صادقة: ومؤسسات التكافل الاجتماعي يا جدّي العزيز؟.

السباعي: أمّا هذه فكانت عجباً من العجب..

فهناك مؤسساتٌ للقطاء واليتامى، ولختانهم ورعايتهم.

وهناك مؤسسات للعميان والمقعدين والعجزة، يعيشون فيها موفوري الكرامة، لهم كلُّ ما يحتاجون إليه من سكنٍ وغذاء ولباس وتعليم أيضاً.

وهناك مؤسسات لتحسين أحوال المساجين، ورفع مستواهم، وتغذيتهم بالغذاء الواجب لصيانة صحّتهم، ومؤسسات لإمداد العميان والمقعدين بمن يقودهم ويخدمهم.

وهناك مؤسسات لتزويج الشبّان والفتيات العزّاب، ممن تضيق أيديهم أو أيدي أوليائهم عن نفقات الزواج وتقديم المهور.

صادق: الله أكبر! . ما أروع هذه العاطفة، وما أحوجنا إليها اليوم.

فابتسم الشيخ الجليل ابتسامةً آسرة ثم قال:

ـ وهناك مؤسسات لإمداد الأمهات بالحليب والسُّكَّر، وهي أسبق في الوجود من جمعيـة (نقطة الحليب) عندنا، مع تمحُّضها للخير الخالص لله عزّ وجلّ. واسمعوا وصدِّقوا ما أقوله لكم:

كان من مبرّات البطل العظيم صلاح الدين الأيوبي أنه جعل في أحد أبواب قلعة دمشق ميزاباً ـ مزراباً ـ يسيل منه الحليب، وميزاباً آخر يسيل منه الماء المذاب فيه السكَّر، تأتي إليه الأمهات يومين في كلِّ أسبوع، ليأخذن لأطفالهنَّ وأولادهنَّ ما يحتجن إليه من الحليب والسكَّر . .

لم أتمالك نفسي وكذلك أختي صادقة، فهتفنا بصوتٍ واحد:

ـ الله أكبر . . الله أكبر . . ما أعظمك يا صلاح الدين! .

ـ بل ما أعظم الإسلام الذي أنجب هذا البطل العظيم الذي لن تعرف البشرية له مثيلاً .

وسكت الأستاذ لحظات، ثم تابع يقول:

ومن أطرف المؤسسات الخيرية، وقفُ الزَّبادي للأولاد الذين يكسرون الزبادي وهم في طريقهم إلى البيت، فيأتون إلى هذه المؤسسة، ليأخذوا زبادي جديدة بدلاً من المكسورة، ثم يرجعون إلى أهلهم، وكأنهم لم يكسروا شيئاً .

صادق: يا سلام . . ما هذا الرقيّ يا أستاذي؟ .

السباعي: وآخر ما أذكره لكم من هذه المؤسسات، المؤسسات التي أقيمت لعلاج الحيوانات المريضة، أو لإطعامها، أو لرعيها حين عجزها، كما هو شأن المرج الأخضر الذي صار الملعب البلدي في دمشق .

صادقة: هذا عن المؤسسات الخيرية، فماذا عن المعاهد العلمية يا جدّي؟ .

السباعي: هذه أيضاً حدّثوا عنها ولا حرج، وحسبُكم أن تعلموا أنه لم تخلُ مدينةٌ ولا قرية في طول العالم الإسلامي وعرضه، من مدارس متعدّدة فيها عشرات من المعلمين والمدرسين.

كانت المعاهد والمدارس العليا، تملأ مدن العالم الإسلامي من أدناه إلى أقصاه، ويذكر التاريخ بكثيرٍ من الإعجاب والإكبار نفراً من أمراء المسلمين، كانت لهم اليد الطولى في إنشاء المدارس في مختلف الأمصار، منهم صلاح الدين الأيوبي الذي أنشأ المدارس في جميع المدن التي كانت تحت سلطانه في مصر ودمشق والموصل وبيت المقدس، ومنهم البطل نور الدين الشهيد الذي أنشأ في سورية وحدها خمسة عشر معهداً، منها ستة في دمشق، وأربعة في حلب، واثنان في حماة، واثنان في حمص، وواحد في بعلبك.

ومنهم نظام المُلك، الوزير السلجوقي العظيم الذي ملأ بلاد العراق وخراسان بالمدارس، حتى قيل فيه: إنَّ له في كلِّ مدينةٍ في العراق وخراسان مدرسة، وكان ينشئ المدارس حتى في الأماكن النائية، وكلّما وجد عالماً قد تميَّز وتبحَّر في العلم، بنى له مدرسةً في بلده، ووقف عليها وقفاً، وجعل فيها دار كتب.

صادق: إذن.. كانت للمدارس والمعاهد العليا أوقافٌ يا سيّدي؟.

السباعي: حسبُنا دليلاً على كثرة أوقاف المدارس والمساجد في دمشق خاصة، أنَّ الإمام النووي (المتوفَّى سنة ٦٧٦هـ) لم يكن يأكل من فواكه دمشق طوال حياته، لأنَّ أكثر غوطتها وبساتينها أوقافٌ لتلك المدارس والمعاهد، اعتدى عليها الظالمون.

صادقة: وكيف كان حال المدارس في أوروبا في ذلك الزمان يا جدّي العزيز؟.

السباعي: كان الجهلُ مطبقاً عليهم، والأميّة متفشّية، ولم يكن للعلم مأوى إلا في أديرة الرهبان، وهي مقصورةٌ على رجال الكهنوت فقط.

صادقة: ومدارسنا ومعاهدنا.. ماذا كانت تعلِّم؟.

السباعي: علوم الدين، من تدريسٍ للقرآن الكريم، وتفسيره، وحفظه وقراءته، وعلوم الحديث الشريف، والفقه بأنواعه، والمنطق وعلوم اللغة العربية، والفلسفة، والطبّ، والصيدلة، وسواها من العلوم التي كانت معروفةً في تلك الأزمنة.

صادقة: وماذا عن المكتبات يا عمّي؟.

السباعي: حديث المكتبات أيضاً حديثٌ يطول، فقد كانت مدارسَ للتعليم، ومؤسساتٍ ينفق عليها الأمراء والأثرياء والعلماء، لينتشر العلم بين الناس، في ذلك الزمن الذي لم تكن فيه الطباعة موجودة، وكانت الكتب تنسخ على أيدي نسّاخٍ متخصّصين لهذا العمل، فكان ثمن الكتاب باهظاً، لا يستطيع طالب العلم شراءه، وكذلك العالم الفقير.

صادقة: ما هي أشهر المكتبات في تاريخ حضارتنا يا سيّدي؟.

السباعي: من أشهر المكتبات:

- مكتبة الخلفاء الفاطميين في القاهرة. كان فيها مليونان من الكتب النفيسة والمصاحف.

- ومنها مكتبة دار الحكمة في القاهرة. كان فيها أربعون خزانة، احتوت إحداها على (١٨٠٠٠) ثمانية عشر ألف كتاب.

- ومنها بيت الحكمة في بغداد، أنشأها هارون الرشيد، وبلغت ذروة مجدها في عصر المأمون. كانت أشبه بجامعةٍ فيها كتب.

- ومنها مكتبة الحكم في الأندلس. وكانت غايةً في العظمة والاتساع، وكان فيها أربع مئة ألف مجلد، وكانت لها فهارس غاية في الدقّة والنظام.

- ومنها مكتبة بني عمّار في طرابلس الشام. كانت آيةً من الآيات في العظمة والضخامة. كان فيها مئة وثمانون ناسخاً ينسخون الكتب، ويتبادلون العمل ليلاً ونهاراً بحيث لا ينقطع النسخ، وكانت تحوي مليون كتاب.

صادقة : والمكتبات الخاصة؟ .

السباعي : كانت هناك آلاف المكتبات الخاصة، اشتهر منها مكتبة الفتح بن خاقان، ومكتبة ابن الخشاب، ومكتبة القفطي، ومكتبة بني جرادة بحلب، ومكتبة الموفق بن المطران الدمشقي وغيرها كثير .

صادق : وأين صارت هذه المكتبات يا سيّدي؟ .

ارتعش الجبل ثم قال في نبرة حزنٍ ثائر :

ـ إنَّ الأسى ليملأ قلوبنا حين نتذكر مصائر هذه المكتبات، وما تعرَّضت له من بوارٍ وحرائق لا يمكن أن تقدَّر خسارة العلم فيها أبداً .

صادق : لماذا يا سيّدي؟ .

السباعي : لأنها أصيبت بنكباتٍ وكوارث قضت على ملايين الكتب، وهي من أثمن ما خلَّفه الفكر الإنساني في التاريخ .

صادق : كيف؟ ومتى يا سيدي؟ .

السباعي : عندما اقتحم التتار بغداد، قذفوا ما وجدوا في دور الكتب العامة والخاصة في نهر دجلة، حتى فاض النهر بالكتب الملقاة فيه، فكان الفارس يعبر عليها من ضفّةٍ إلى ضفّة؟ وظلَّ ماء النهر أسود داكناً أشهراً طويلة .

صادقة : وحوش . . همج . . أوباش .

السباعي : والحروب الصليبية أفقدتنا أعزَّ المكتبات التي كانت في طرابلس والمعرة والقدس وغزة وعسقلان وغيرها من المدن التي خرّبها الصليبيون . وقد قدَّر المؤرخون ما أتلفه الصليبيون من الكتب في مدينة طرابلس وحدها بثلاثة ملايين مجلد .

صادق : يا لطيف . .

صادقة : هؤلاء الصليبيون لا يقلّون همجيةً عن التتار المتوحّشين .

السباعي: ونكبة استيلاء الإسبان على الأندلس، أفقدتنا تلك المكتبات العظيمة التي يتحدّث عنها التاريخ بذهول، فقد احترقت كلّها بأيدي أولئك السّفلة، تصوّروا.. أحرقوا في يومٍ واحد في ميدان غرناطة مليون كتاب.

صادقة: كلّهم وحوش.. همج، متوحشون، أعداء العلم والدين والإنسانية.

السباعي: على أيّ حال، ينبغي لنا أن نعلم أنَّ الأمة التي تستحقّ الحياة، تجد غذاءها في العلم قبل كلِّ شيء، وأمتنا يوم كانت تبعث الحياة في الأمم والشعوب، كانت تسلك كلَّ سبيلٍ للتزوُّد من العلم ونشره وإذاعته، بل كان أكثر أبنائها، من الخليفة إلى العالم والتاجر، يتبارون في الاستكثار من أدوات العلم وكتبه وبناء مدارسه، وكانت لا يُتحدَّث فيها إلا بما يزيد في العلم، ويفتح الذهن، ويصقل العقل.

والتقط الشيخ الجليل بعض حبّات الجمان التي كانت تتلألأ على جبينه الناصع، ثم تابع يقول في حماسة:

ـ قصارى القول: إنَّ حضارتنا في عصور ازدهارها، ملأت العالم الإسلاميّ بنور العلم، حتى قال العالم الكبير (غوستاف لوبون):

«إنَّ حبَّ العرب للعلم كان عظيماً، وإنهم بلغوا درجةً رفيعة من الثقافة، بعد أن أتمُّوا فتوحهم بزمنٍ قصير، حتى استطاعوا أن يبدعوا حضارةً أينعت فيها الآداب والعلوم والفنون، وبلغت الذروة».

يبدو أنَّنا لم نشبع من الحديث عن حضارتنا، ولذلك كنا نحاول استذكار ما قد نسيناه، وقد فطنَّا للحديث عن المستشفيات والمعاهد الطبيّة، فسألتْ صادقةُ شيخنا الجليل:

ـ وماذا عن المستشفيات والمعاهد الطبية يا سيّدي؟.

فشمَّر الشيخ الجليل عن كلا ساعديه، ثم انطلق يتدفَّق في الحديث

عن المستشفيات في عصور ازدهار حضارتنا، وكان مما قاله:

ـ من المبادئ التي قامت عليها حضارتنا، أنها جمعت بين حاجة الجسم وحاجة الروح، لأنَّ العناية بالجسم ومطالبه ضروريّةٌ لتحقيق سعادة الإنسان وإشراق روحه «إنَّ لبدنِك عليك حقاً».

ومن الملاحظ في عبادات الإسلام تحقيقها أهمَّ غرضٍ من أغراض علم الطبّ، وهو حفظ الصحّة، وتعريف علم الطبّ عند المسلمين، أنه علمٌ يبحث في حفظ الصحة على الأصحّاء، وردّها على المرضى.

صادق: تعريفٌ جميل لعلم الطب.

السباعي: فالصلاة والصيام والحجّ، وما تتطلَّبه هذه العبادات من شروطٍ وأركان، وأعمال كلّها تحفظ للجسم صحَّته ونشاطه وقوَّته. وإذا أضفنا إلى ذلك مقاومة الإسلام للأمراض وانتشارها، وترغيبه في طلب العلاج المكافح لها، علمنا أيَّ أسسٍ قوية قام عليها بناء حضارتنا في ميدان الطبّ، ومبلغ ما أفاده العالم من حضارتنا في إقامة المشافي والمعاهد الطبيّة، وتخريج الأطباء الذين لا تزال الإنسانية تفخر بأياديهم البيض على العلم عامّةً، والطب خاصّة.

صادقة: متى أقيم أول مستشفى في الإسلام يا جدّي؟.

السباعي: في عهد الوليد بن عبد الملك، وهو مستشفى خاصّ بالمجذومين، ثم تتابع إنشاء المشافي، وكانت تسمى (بيمارستانات) أي دور المرضى.

صادق: هل كان لدينا مستشفيات ميدانية؟.

السباعي: طبعاً. . وكان أول مستشفى ميداني ذلك الذي أنشأه النبي العظيم ﷺ في غزوة الخندق، إذ أقام خيمةً للجرحى، وهو أول مستشفى ميداني في الإسلام، ثم توسَّع فيه الخلفاء والملوك من بعد، حتى أصبح المستشفى الميداني المتنقِّل مجهَّزاً بجميع ما يحتاج إليه المرضى، من علاجٍ وأطعمة وأشربة وملابس وأطباء وصيادلة، وكان يُنقل من قريةٍ إلى قريةٍ في

الأماكن التي لم يكن فيها مستشفياتٌ ثابتة .

صادقة : لكنْ . . يبدو أنها مستشفياتٌ متواضعة .

السباعي : متواضعة؟! . تصوّروا أن بعض المستشفيات المتنقِّلة في أيام السلطان محمود السلجوقي قد بلغت حدّاً من الضخامة ، بحيث كان المستشفى يُحمل على أربعين جملاً .

صادق : الله أكبر . .

صادقة : والمستشفيات الثابتة؟ .

السباعي : كانت كثيرةً جداً تفيض بها العواصم والمدن ، بل لم تخلُ بلدةٌ صغيرة في العالم الإسلامي يومئذٍ من مستشفى فأكثر ، حتى إنَّ مدينة قرطبة وحدها كان فيها خمسون مستشفى .

فصحتُ في انبهار :

ـ خمسون مستشفى؟ وفي مدينةٍ واحدة؟ .

أجاب الدكتور السباعي رحمه الله رحمةً واسعة :

ـ أجل يا صادق . . خمسون مستشفى . . وكان هناك مستشفياتٌ للجيش ، ومستشفيات للمساجين ، عدا عن أطباء الخليفة والأمراء والقوَّاد . بل كان عندنا محطاتٌ للإسعاف كانت تقام بالقرب من الجوامع والأماكن العامة التي يزدحم فيها الناس .

صادقة : الله أكبر! . ما أروع حضارتنا! .

السباعي : وكانت المستشفيات العامة تُقسم إلى قسمين منفصلين عن بعضهما البعض : قسمٌ للذكور ، وقسم للإناث ، ولكلِّ قسمٍ قاعاتٌ متعدِّدة ، كلُّ قاعةٍ لنوعٍ معيَّن من الأمراض ؛ فمنها للأمراض الباطنية ، ومنها لطبّ العيون ، ومنها للجراحة ، ومنها للكسور والتجبير ، ومنها ما كان للأمراض العقلية .

صادق : الله أكبر . . أنا مندهش مما أسمع .

السباعي: وقسم الأمراض الباطنية أو الداخلية كان مقسَّماً إلى غرفٍ أيضاً، فهناك غرفٌ للإسهال، وغرف للحُمِّيات وغير ذلك.

صادقة: يا سلام!.

السباعي: وكان لكلِّ قسمٍ أطباء وعليهم رئيس، فرئيسٌ للأمراض الباطنية، ورئيس للجراحين، ورئيس للكحّالين (أي أطباء العيون). ولكلِّ الأقسام رئيسٌ عامّ يسمَّى (الساعور) وهو لقبٌ لرئيس الأطباء في المستشفى.

صادقة: وهل كان في المستشفيات تلك قاعاتٌ للمحاضرات ياجدي الجليل؟.

السباعي: طبعاً يا بنيّتي.. بل كانت المستشفيات معاهد طبيّة أيضاً، ففي كلِّ مستشفى قاعةٌ كبيرة للمحاضرات، يجلس فيها كبير الأطباء، ومعه الأطباء والطلاب وبجانبهم الآلات والكتب، فيقعد التلاميذ بين يدي معلِّمهم، بعد أن يتفقَّدوا المرضى، وينتهوا من علاجهم، ثم تجري المباحث الطبية والمناقشات العلمية بين الأستاذ وتلاميذه.

صادق: وهل كان لدينا أطباء لكلِّ تلك المستشفيات؟.

السباعي: في بغداد وحدها كان أكثر من ثماني مئةٍ وستين طبيباً في عام ٣١٩هـ ـ ٩٣١م هؤلاء أطباء المستشفيات العامة، يعني عدا أطباء الخليفة والوزراء والأمراء والقوَّاد.

ولا يفوتني أن أذكر لكما أنه كان يلحق بكلِّ مستشفى مكتبةٌ عامرة بكتب الطبّ وغيرها، وكان في بعضها ما يزيد على مئة ألف مجلد.

صادق: الله أكبر.

السباعي: أمّا نظام الدخول إلى المستشفيات، فقد كان مجّاناً للجميع، لا فرق بين غنيٍّ وفقير، وبعيدٍ وقريب، ونابهٍ وخامل.. كان يُفحص المرضى أولاً في القاعة الخارجية، فمن كان يشكو من مرضٍ خفيف، يُكتب له العلاج، ويُصرف له الدواء من صيدلية المستشفى، ومَن

كانت حالته المرضية تستوجب دخوله المستشفى، كان يُقيَّد اسمه، ويدخل إلى الحمَّام، وتُخلع عنه ثيابه فتوضع في مخزنٍ خاص، ثم يعطى ثياباً خاصة بالمستشفى، ويدخل إلى القاعة المخصصة لأمثاله من المرضى، ويخصَّص له سريرٌ مفروش بأثاثٍ جيد، ثم يُعطى الدواء الذي يعيِّنه الطبيب، والغذاء الموافق لصحته، بالمقدار المفروض له.

صادق: هذا رائـع.. رائـع جداً.. ولكنْ.. ما الطعام الذي كانـوا يقدِّمونه للمرضى؟.

السباعي: لحوم الأغنام والأبقار والدجاج والطيور، وعلامة الشفاء أن يـأكل المريض رغيفاً كاملاً، ودجاجةً كاملة في الوقعة الواحدة، فإذا أصبح المريض في دور النقاهة، أُدخل القاعة المخصَّصة للناقهين، حتى إذا تمَّ شفاؤه، أعطي بدلةً من الثياب جديدة، ومبلغاً من المال يكفيه إلى أن يصير قادراً على العمل.

صادقة: ونظافة المستشفى يا جدّي؟.

السباعي: كانت غرف المستشفى نظيفةً تجري فيها المياه، وكانت قاعاته مفروشةً بأحسن الأثاث، وكان لكلِّ مستشفى موظفون مفتِّشون على النظافة، ومراقبون للقيود المالية، وكثيراً ما كان الخليفة أو الأمير يتفقَّد بنفسه المرضى، ويشرف على حسن معاملتهم.

واسمعوا وتصوَّروا روعة تلك المستشفيات..

وتحرَّك الجبل الأشمّ معدِّلاً من جلسته، ثم قال:

- من أروع ما في بعض تلك المستشفيات، أنَّ المرضى المؤرَّقين الذين جافاهم النوم، كانوا يُعزلون في قاعاتٍ خاصة، يشنِّفون فيها آذانهم بسماع الألحان الشجيَّة، أو يتسلّون باستماع القصص التي كان يقصُّها عليهم القصَّاصون، وكان الناقهـون منهم تُمثَّل أمامهم الروايـات المضحكـة، ومشـاهد من الرقص البلدي، وكان المؤذِّنـون في المسـجد الملاصـق للمسـتشفى، يؤذِّنـون في السَّـحَر قبل ميعاد الفجر بسـاعتين، وينشـدون

الأناشيد بأصواتهم النديَّة العذبة، ليخفِّفوا من آلام المرضى الذين يضجرهم المرض والسهر وطول الوقت.

صادقة: هذا والله سموٌّ إنسانيٌّ عجيب، وفطنةٌ طبيّة لأجدادنا العظام، ما عرفها غيرنا إلا في وقتنا الحاضر.

السباعي: واسمعوا هذا الوقف الغريب في مدينة طرابلس.. رَيْعُ هذا الوقف مخصَّصٌ لتوظيف اثنين يمرَّان بالمستشفيات يومياً، فيتحدَّثان بجانب المرضى حديثاً خافتاً ليسمعه المريض، بما يوحي له بتحسُّن حالته، واحمرار وجهه، وبريق عينيه..

فهتفنا صادقة وأنا إعجاباً بهذا الوقف الذي إنما كان لرفع معنويات المرضى، ولتطبيبهم نفسيّاً، وهو ما لم نسمع بمثله حتى وقتنا الحاضر.

السباعي: إننا في حضارتنا كنَّا أسبق من الأوروبيين إلى تنظيم المستشفيات بتسعة قرون على الأقل.. وإنَّ مستشفياتنا قامت على عاطفةٍ إنسانيّة نبيلة لا مثيل لها في التاريخ، ولا يعرفها الغربيون حتى هذه الأيام، وإننا كنَّا أسبق الأمم إلى معرفة ما للموسيقى والأدب المضحك، والإيحاء الذاتيّ من أثرٍ بالغ في شفاء المرضى.

وإننا بلغنا في تحقيق التكافل الاجتماعي حدّاً لم تبلغه الحضارة الأوروبية حتى اليوم، حين نجعل الطبَّ والعلاج والغذاء والكساء للمرضى بالمجَّان، بل حين كنَّا نعطي الفقير الناقه من المال ما ينفق على نفسه حتى يصير قادراً على العمل.

إنَّ هذه نزعةٌ إنسانية بلغنا فيها الذروة، يوم كنا نحمل لواء الحضارة.. فأين نحن منها اليوم؟ وأين منها أولئك الأوروبيون؟!.

قلت معقِّباً على كلام الأستاذ الجليل:

ـ نحن الآن، كما تعلم يا سيّدي، مُخْبَطون، خاملون، وعندما نحاول النهوض، نفاجأ بالعقبات، وتوضع أمامنا العراقيل، ويقسو علينا أولو الأمر، ومن بيدهم السلطان.. نحن الآن في عصر انحدارٍ يا سيّدي، وفهمُك كفاية.

فانتفض الجبل وقال:

ـ حذارِ من اليأس. . حذارِ من الجبن. . حذار من البخل بالمال والوقت والجهد والدَّم في سبيل نهوض أمتكم. . كونوا التيّار الجارف المصمِّم على النهوض، مهما كان الثَّمن.

وأرادت صادقة أن تغيِّر مجرى الحديث، فسألت الرجل العملاق عن الرسالة المحمديّة، وعن أثرها في العرب وعلى العالم، فتدفَّق الينبوع الصافي بهذه الكلمات الوضيئات:

ـ لا يعرف مدى أثر الرسالة المحمديّة على العرب والعالم، إلا الذين أحاطوا بأحوال العرب والعالم قبيل عصر الرسالة، وأحاطوا بما آل إليه أمر العرب والعالم بعد انتشار نورها، وامتداد سلطانها، وأنا لا أستطيع هنا، وبهذا اللقاء العابر، أن أبْسُطَ القول في آثارها وفضائلها، ومدى تأثيرها في تحويل سير الحضارة، وتغيير مجرى التاريخ؛ إذ كيف نجمع أزهى أسفار الإنسانية وأكملها في جلسة؟ أو في جلسات؟ ولكني أرى أن نربط بين ماضينا وحاضرنا، فما رأيكم؟.

صادق: وهل لنا رأيٌ بعد رأيك يا سيّدي؟.

السباعي: هذا لأنَّ تواريخ الأمم الماضية دروسٌ للأجيال المتلاحقة، ونحن لا نقرأ التاريخ لنعرف ما مضى فحسب، بل لنستفيد من تجارب الآباء، ما يكون عظاتٍ صادقة للأبناء. . وتاريخنا أولى التواريخ بأن نعكف على دراسته، وذكرياتنا أولى الذكريات بأن نستفيد من دروسها، فكيف إذا كان هذا التاريخ هو تاريخ النبيّ الذي غرس أنبل معاني الخير في الأرض، فكان نباتها أكمل أبناء الدنيا خُلقاً، وأخلدهم ذكراً في السماء؟.

وكيف إذا كانت هذه الذكريات عن الرسول العظيم ﷺ الذي ابتدأت برسالته حضارة، وانتهت حضارات؟.

صادق: إذن. . تفضَّل وحدِّثنا عن واقع العرب قبل الرسالة ياسيِّدي.

السباعي: لا بأس.

وتحرَّك الجبل على كرسيّه، ثم قال:

ـ يتلخَّص واقع العرب قبيل الرسالة في أوضاعٍ ثلاثة:

أولاً ـ تفكُّكٌ داخليّ، تتجلَّى مظاهره في فساد العقيدة، وانحلال الروابط، وانتشار بعض المفاسد الخُلقية، وانعدام معنى الأمة والدولة، وضعف الصلة بين الفرد والجماعة.

صادقة: عفواً يا سيدي.. قلتَ: بعض المفاسد الخلقية، وأنا أعتقد أنَّ حياة العرب في الجاهلية كانت فساداً في فساد.

السباعي: لا يا بنتي.. كان عند العرب قيمٌ وأخلاق، كالشجاعة، والكرم، والصدق، والأمانة، والمروءة، والنجدة، وسواها من مكارم الأخلاق.

صادق: ولذلك قال الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام:

«إنما بُعثْتُ لأتمِّمَ مكارمَ الأخلاق».

السباعي: أحسنت يا بنيّ.

صادقة: وثانياً؟.

السباعي: ثانياً ـ كانت الجزيرة العربية محاطةً بدولتين قويتين هما: الإمبراطورية الفارسيّة، والإمبراطورية الروميّة، وكانت هاتان الدولتان تستخدمان العرب القاطنين في ربوعهما، أو قريباً منهما، لتحقيق مآربهما.

صادق: يعني.. كان أولئك العرب عملاء للفرس أو الروم؟.

السباعي: يعني.. أو أنهم كانوا واقعين تحت سيطرتهما واستعمارهما.

صادق: وأين كان يعيش أولئك العرب؟.

السباعي: في العراق والشام.. كان المناذرة في الحيرة، يعني في العراق، وكان الغساسنة في بلاد الشام.. في بُصْرى الشام وما حولها.

صادقة : ثالثاً؟

السباعي : ثالثاً ـ كان لدى العرب توثُّبٌ نفسيّ ، واستعداد فطريّ لتلقِّي الخير ، والاندفاع وراء القائد البصير ، وما مكارم الأخلاق التي ذكرناها قبل قليل ، إلا أسلحةٌ ماضية ، أي قاطعة ، لو وجدت القائد الذي يحسن استخدامها ، لكانت خير معينٍ على بناء المجد ، وإصلاح الدنيا ، وتهديم عروش الفساد .

صادق : وقد وجدتْ في سيدنا محمد ﷺ ذلك القائد .

السباعي : عليه الصلاة والسلام . . فقد اجتمع للرسول القائد ﷺ ذكاء العقل ، وسلامة التفكير ، وصفاء الذهن ، وبُعْد الهمّة ، إلى جانب تأييد الوحي ، وتربية السماء ، ومدد الألوهية ، ورعاية الله الذي شاء أن يختم به الوحي والتشريع ، ليكون في عصره الرسول القائد ، وليكون في تاريخ الإنسانية الرسول الخالد ﷺ .

صادق : هل لك ـ يا سيّدي ـ أن تلخِّص لنا خطة الرسول القائد ﷺ التي عالج بها واقع العرب؟ .

السباعي : ألخِّصها إن شاء الله ، لأنها مهمّةٌ جدّاً في حياتكم التي تحيونها ، وأنتم تسعون إلى استئناف الحياة الإسلامية بعون الله .

وتحرّك العملاق حركةً سريعة عالج بها جلسته وبعض هندامه الأنيق ، ثم قال :

ـ أولاً ـ صحَّح العقيدة ، وحرَّرها من خرافات الوثنية ، وأباطيل الجاهلية . . وتصحيح العقيدة في كلِّ أمة ، هو أول حجرٍ يوضع في بناء نهضتها ، واستقرار شؤونها . . أجل . . بقي في مكّة المكرّمة ثلاثة عشر عاماً لا ينزل عليه من القرآن إلا ما كان حرباً على الوثنية ودعاتها وأصنامها ، ودعوةً إلى التوحيد .

صادق : ووسيلته في ذلك؟ .

السباعي: استعان على ذلك بالعقل الذي دعاه إلى الانطلاق، وحثَّه على التفكير، لمعرفة ما يحيط به من عوالم لا نهاية لها.

صادقة: أنا أحفظ عدّة آياتٍ عن العقل، وضرورة التفكير في خلق الله تعالى.

السباعي: قام بعض العلماء بإحصاء الآيات الكريمة، فوجد أنَّ خُمْس آيات القرآن الكريم، يعني (٢٠٪) من الآيات الكريمة، توجِّه الناس لإعمال النظر والعقل في بدائع الخلائق، في الأرض وفي السماء.

صادقة: الله أكبر.

السباعي: وهكذا حرَّك الإسلامُ العقلَ لينطلق باحثاً مفكِّراً، بعد أن كبَّلتْه الوثنية فجعلته أسيراً خامداً.

وسكت الرجل العملاق لحظة، ثم تابع يقول:

- هذا أولاً.. وثانياً - أنشأ الفرد الكامل، فسما بروحه إلى آفاق الكمال، وهذَّب من طباعه وأخلاقه، فنفى عنها كلَّ ضعيفٍ وفاسد، وقوّى فيها كلَّ صالحٍ ونبيل، وعُني بصحَّته ونظافته وتربيته تربيةً رياضية سليمة تبعد عنه الأمراض والعلل، وحرَّم عليه الخمور والفواحش ليصون جسمه من المهلكات، لأنَّ كمال النفس بكمال الجسم.

صادق: صدقتَ يا سيّدي، فالعقل السليم في الجسم السليم.

السباعي: أحسنتَ يا ولدي... وكما عُني الرسول ﷺ القائد بروح الفرد وخُلقه وصحَّته، عُني بتقوية الروح الاجتماعية فيه، ومحاربة القبليّة والعائلية والانعزالية في نفسه. وهذه الأمراض هي أقتل الأخلاق الفردية لروح الجماعة، وكيان الأمة.

صادقة: وماذا عن موقف الرسالة والرسول ﷺ من العلم؟ وماذا عن مرض الجهل؟.

السباعي: إنَّ العلم - يا أولادي - هو مفتاح الكمال الفردي،

فلا تستقيم مع الجهل فضيلة، ولذا دعا الإسلام إلى العلم، وجعله فريضةً على كلِّ مسلم.

صادقة: ومسلمة؟.

السباعي: ومسلمة.. كلمة مسلم تشمل الذكر والأنثى..

صادق: صحيح..

السباعي: وهكذا بدأ رسول الله ﷺ الإصلاح الداخليّ بإصلاح الفرد، فصحَّح عقيدته، ثم حلَّاه بالعلم والأخلاق والصحَّة وسموّ الرّوح، وقوّة العاطفة الاجتماعية في نفسه، ثم التفت بعد ذلك إلى تنظيم المجتمع، فأقامه على أسسٍ عادلة كاملة أُجملها لكم بالتالي:

أولاً ـ صحَّح الميزان الاقتصادي، وحقَّق العدالة الاجتماعية بين الأغنياء والفقراء، فليس في الدولة الإسلامية فقيرٌ لا يجد الطعام، ولا متشرِّدٌ لا يجد المأوى، ولا عارٍ لا يجد اللباس والكساء، ولا عاطل عن العمل لا يجد النفقة، ولا عاجز لا يجد المعيل، بل كلُّ هؤلاء في رعاية الدولة، تنفق عليهم من بيت مال المسلمين، وتحفظ لهم كرامتهم في المجتمع، وتقيهم شرَّ السؤال والعَوَز والمرض والجهالة.

صادق: يا سلام! ما أعظم ما جاء به الإسلام!.

السباعي: ثانياً ـ صحَّح العلاقة بين الشعب والدولة، فليست الدولة إلا رقيبةً على تصرّفات الشعب، تمنع منها الضارّ، وتشجِّع المفيد، وليس الحاكم إلا أجيراً للشعب، يسهر على راحته، ويعمل من أجل رفاهيته، وليس الرئيس إلا فرداً من أفراد الشعب، جعله الله أكثر أعباءً وواجبات.

صادق: الله أكبر.. لم أسمع بمثل هذا من قبل.

وقالت صادقة، وهي تصعِّد الحسرات:

ـ يا ليت قومي يعلمون حقيقة هذا الدين، وأيَّ سعادةٍ يجلبها لهم لو تمسَّكوا به.

وسألتُ أنا المفكِّرَ العظيم عن حالنا اليوم، فأجاب:

ـ لو أنعمتم نظركم في واقعكم اليوم، لوجدتموه يشبه ـ إلى حدٍّ كبير ـ واقع العرب قبيل عصر الرسالة؛ فالعرب اليوم يعانون تفكُّكاً داخلياً، واضطراباً خارجياً، ولكننا نلحظ في ثنايا هذا الضعف توثُّباً نفسياً، واستعداداً فطرياً لو هُيِّئ له القائد المُصلح، لكان في يده أقوى سلاح، فعلى القادة:

أولاً ـ أن يستفيدوا من ذينك التوثُّب النفسي، والاستعداد الفطري، لتكون حركة الإصلاح منبثقةً من صميم الأمة، وواقعها الحاضر، وشخصيَّتها التي عُرفت بها بين الأمم، لا أن يلفِّقوا لها ثوباً مرقَّعاً كخيام الغجر، رقعةٌ من هذه الدولة، ورقعة من تلك، فإذا الذي علينا ثوبٌ مهلهل، لا هو بالشرقيّ في روعته وجلاله، ولا هو بالغربيّ في أناقته وجماله.

صادقة: ثانياً؟.

السباعي: ثانياً ـ أن ننظِّم بنياننا الداخليّ، فنصلح العقائد، ونهيئ الفرد الكامل، والمجتمع العادل.

صادقة: وثالثاً؟.

السباعي: ثالثاً ـ أن نحرِّر أجزاء وطننا الرازحة تحت أعباء الجهل والفقر والخوف والاستعمار.

رابعاً ـ ننطلق بعد ذلك لنحمل راية الإنقاذ، ونخلِّص العالم من ويلاته، ومشكلاته، وطواغيته ومستبدِّيه.

خامساً ـ أن نوائم بين الماضي والحاضر، فيكون سيرنا إلى الأمام دائماً، مع نورٍ يضيء لنا الطريق، ويجنِّبنا عثرات الظلام.

صادقة: وسادساً؟.

السباعي: أن نستفيد من كلِّ ما عند الأمم الأخرى، استفادةَ البصير الناقد، لا الأعمى المقلِّد.. يجب أن نستفيد ولا نحبّ، وننقد ولا نقلِّد،

ولنحذر من الإعجاب، فإنه أول خطوات الحب، والحبُّ أول خطوات الاستعباد.

صادقة: يا سلام! ما أعظم هذا الكلام.

السباعي: والآن.. يطيب لي أن أدعوكم وأدعو معكم شباب هذه الأمة، لتوحِّدوا كلمتكم، وتجمعوا شتاتكم، وتقودوا أمتكم إلى ميادين النصر قيادةً بصيرة متَّزنة، لا يقتلها الجمود، ولا ينهكها التطرُّف، وأن توجِّهوا استعداداتكم لثورةٍ فكرية وأدبية، لا تُبقي على الخرافات، ولا تقبل بالتحلُّل، ولا ترضى بالظلم، ولا تطمئنّ إلى آثار الاستعمار.. ولا تنسوا - أيّها الشباب - أنَّ فلسطين هي مفتاح ثورتكم الكبرى، فزيدوا نارها وقوداً، وغضبتها اتساعاً، واجعلوها مبدأ تحرُّركم من الظلم والظالمين، ومن الطواغيت المستبدِّين.

خشينا أن يكون الرجل العملاق قد ختم حديثه بهذه الكلمات، فبادرت صادقة تقول:

- قرأتُ كتابك يا جدّي: (القلائد من فرائد الفوائد) وأفدتُ منه كثيراً والحمد لله.

ابتسم العملاق الوقور، وأشرق نور العلم بكلماته الوِضاء:

- من عادة طلاب العلم، أن يقيِّدوا ما يجدونه من فوائد متناثرة في بطون الكتب خلال مطالعاتهم، يدوِّنونها في أوراقٍ خاصة، يرجعون إليها عند الحاجة، وكان العلماء يقولون لتلاميذهم: «قيِّدوا العلمَ بالكتاب» وقد عملتُ أنا بهذه النصيحة، فتجمَّع لي من ذلك قدرٌ كبير، ضاع أكثره في سنوات السفر والسجن والمرض، مع شدَّة حرصي عليه.

فقلت:

- يا حسرة على ما ضاع.. لا بدَّ أنه كان نفيساً.

ثم سألتْ صادقة عن الهدف من كتابة تلك النُّقول، ما دامت موجودةً في بطون الكتب، فأجابها الشيخ الجليل:

ـ اسمعي يا بنتي . . أولاً ـ العلم صيد، والكتابة قيد، فقيِّدي صيدَكِ حتى لا يفلت منك . . وأنتِ، وصادق، وأنا، وغيرنا، عندما نقيِّد هذه الشذرات، فحتى لا تغيب عن البال . . حتى نستفيد منها كلَّما رجعنا إليها، نستفيد منها في كتاباتنا المستقبليّة .

صادقة : وثانياً؟ .

السباعي : ثانياً ـ كانت لي عدّة أهداف من وراء نشرها في كتاب . . منها تزويد الشباب المسلم بثقافةٍ إسلامية شاملة، تجعل منه مشاركاً للمختصّين في الدراسات الإسلامية، بالمعلومات الضرورية منها، أو المسائل الطريفة فيها . . ومنها إطلاع الشباب المسلم على روائع الخُلق الإسلاميّ الأصيل . . ومنها التوجيه الروحيّ النبيل من معدنه الصافي، لأجيالنا الصاعدة التي تعيش في بيئاتٍ ابتعدت كثيراً عن النبع النمير لنهرنا المتدفِّق، وفي ظلِّ حضارةٍ ماديّة لا تحفل بالقيم الروحية والإنسانية كثيراً، ممّا جعل شبابَنا يعيشون في جوٍّ نفسيّ متأزِّم، يعرِّضهم لكثيرٍ من الانحرافات في سلوكهم الاجتماعي .

ومنها تقوية الشباب المسلم في لغته العربية مادَّةً وأسلوباً، بحيث يستطيع فهم كتاب الله العزيز، وتذوُّق بلاغته، واحتذاء أسلوبه .

صادق : وهل هذا ضروريٌّ لنا نحن الشباب؟ .

فأجاب السباعي العميق الأغوار :

ـ يقيني أنَّ تغيير النفس المسلمة المعاصرة، وتخليصها من العيوب النفسية والخُلقية والفكرية، لن يتمَّ إلا بأن تعود إلى التأثُّر ببلاغة القرآن الكريم، وأسلوبه الرصين، وكلُّ تقويةٍ للغة العربية الفصيحة في أساليبها البليغة، هو تمهيدٌ لصنع المعجزة الإنسانيّة مرّةً أخرى بالقرآن الكريم، ورسوله العظيم ﷺ .

صادق : جميل .

السباعي : ومن أهدافي أيضاً : الترويح عن النفس ببعض المُلَح

المستطرَفة، ممّا يشبه الهزل وما هو بالهزل، فالنفس تملُّ من الجدّ في التفكير، كما يملُّ الجسم من الجدّ في العمل.

كانت عينا صادقة مفتوحتين على الآخِر، وهي تسمع رأي العالم الوقور عن الدُّعابة والنّكات، فسألتْه أن يشرح أكثر، فهي تعرف أنَّ العلماء متزمِّتون لا يمزحون، ولا يسمحون لأحدٍ بالمزاح في مجالسهم، فألقى إليها السباعي الكبير بنكتة، وضحك وضحكنا معه، ثم قال:

ـ إنَّ التحرُّج من المزاح أو الدعابة المحتشمة، كما يفعل بعض المتظاهرين بالوقار، مرضٌ نفسيّ ينشأ من جفاف الروح، وانحراف المزاج، واعتلال الصحّة، وأعظم الناس تزمُّتاً في المجالس العامّة، لا يستغني عن المرح والدّعابة ورواية المُلَح والطرائف والحكايات المضكحة في مجالسه الخاصّة.

صادقة: كلامٌ رائع.

السباعي: وإني أكره أولئك الذين يرون في التزمُّت وعبوس الوجه دليلَ الجدّ، وعنوان الوقار والكرامة. ولو كان هذا صحيحاً، لكان أجدر الناس به رسول الله ﷺ.

وتذَّكرتُ بعض النكات التي سمعتُها من بعض الأساتذة الذين سمعوها بآذانهم، يتبادلها العالمان الكبيران الوقوران: الشيخ محمد الحامد، والشيخ مصطفى السباعي، فهززتُ رأسي الذي امتلأ إكباراً لهذا العملاق المتواضع، فيما كانت صادقة تقول:

ـ ولكنَّ بعض الناس يزيدونها حبَّتين، وهم يمزحون ويقهقهون.

فقال السباعي العميق الأغوار:

ـ أنا أيضاً لا أحبُّ الذين يُفْرِطون في طلب النّوادر المضحكة، وحكايتها، وقتل أوقاتهم في المزاح والدعابة، والخير وسطٌ بين الأمرين.

صادق: خير الأمور أوساطُها.

صادقـة: لكنني لاحظت أنَّ الفوائـد التي ذكرتَها في كتابـك هذا، يا سيدي الجليل، هي من التراث العربي، ولم تذكر شيئاً من التراث الغربيّ الذي أكرهه بشدّة.

السـباعي: لأنني أحببتُ أن يعلم الذين يجهلـون هذا التـراث من مصـادره الأولى، أيَّ خسـارةٍ فكريـة ونفسـية تلحق بهم من جهلهم به، وإعراضهم عنه، ونحن نخوض اليوم معارك ضارية في سبيل الاحتفاظ بسيادتنا، وشخصيتنا، ومقوِّمات حياتنا. والمعركة الثقافية أخطر هذه المعارك، وأبعدها آثاراً.

وسكت الرجل العملاق لحظةً استردَّ فيها أنفاسه، ثم تابع يقول في حماسته التي لم أرَ لها مثيلاً لدى من قابلتُ من المفكرين والعلماء:

ـ وإذا كانت الأمم الحيَّة لا تعيش في بيتٍ مقفل يسـدُّ عليها منافـذ الهواء والنور، بل تأخذ من كلِّ الثقافات، وتطَّلع على نتائج العقل الإنساني أنَّى كان، وكيفما كان، فإنها تكون أحرص على معرفة تراثها الإنسانيّ، والتَّزوُّد منه، خاصةً إذا كان ذلك التراث عنواناً لحضارةٍ إنسانية من أسمى الحضارات الإنسانية في التاريخ. فإذا رأيتم أمةً تريد الحياة والبقاء والإسهام في ركب الحضارة الإنسانية، ثمَّ هي تزدري أدبها الرائع، وتحتقر تراثها الفنّي، وتهمل نتاجها الفكريّ الخصيب، فاعلموا أنها أمةٌ هازلة، جاهلـة بأقوى عوامل بقائها، ومقوِّمات وجودها، وهي كالتاجر الذي يريد مزاحمة كبار التجار، وليس له ما يتَّجر به.

وسألت صادقة:

ـ هل تسـمح لنا يا جدي العزيـز أن ننتقل إلى كتـابك القيّم: (هكذا علَّمتني الحياة)؟.

السباعي: كما تحبّين يا ابنتي.

صادقة: متى ألَّفتَ هذا الكتاب الرائع الذي بثثتَ فيه خلاصة تجاربك وفلسفتك في هذه الحياة يا سيّدي؟.

السباعي: كتابي هذا هو عبارةٌ عن خطراتٍ بدأت تسجيلها وأنا في مستشفى المواساة بدمشق في شهر نيسان من عام ١٩٦٢ وكنت بدأت بتسجيلها لنفسي حين رأيتني في عزلةٍ عن الأهل والولد، وعن التدريس والتأليف، وهذه هي عادتي في السجون والأمراض والأسفار.

صادق: تكتب وأنت مريضٌ راقد في المستشفى يا سيّدي؟.

السباعي: لقد أجمع كلُّ الأطباء الذين أشرفوا على علاجي في بلادنا وفي بلاد الغرب، أنَّ من الواجب أن أركن إلى الراحة التامّة، فلا أقرأ، ولا أكتب، ولا أشغل بالي بمشكلات الحياة وهمومها، حتى يُقَدَّر لي الشفاء من مرضٍ كان سببه الأول في رأيهم إرهاق الأعصاب بما لا تتحمَّله.

صادقة: ولكنَّك، يا سيدي، لم تستجب لنصيحتهم، ولم تنفِّذ تعليماتهم، حتى وقع القضاء.

السباعي: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨]، و﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩].

صادق: صدق الله العظيم.

السباعي: والموت - يا أولادي - حقّ، وهو غاية كلِّ حيّ، ولن تموت نفسٌ حتى تستوفي أجلها.

صادقة: كيف كنت تكتب خواطرك هذه يا جدّي؟.

السباعي: كنت أرى المنظر فيوحي إليَّ بالخاطرة أو بأكثر من خاطرة، فأدوِّنها، ثم أرى منظراً آخر فأدوِّن ما خطر لي تعليقاً عليه، وكنت أحياناً أتذكَّر ما مضى من حياتي مع الناس، فأكتب ما استفدت من تجاربي معهم.. كتبتها منساقاً مع طبيعتي التي تحبّ البساطة في كلِّ شيء، وتكره التعقيد في أيِّ شيء. وأنا فيها لست فيلسوفاً - كما قلتِ قبل قليلٍ يا صادقة - ولا حكيماً، ولا مفكِّراً بعيد الغور في الوصول إلى الحقائق، ولكنني صاحب تجارب عملية في الحياة، استغرقت من عمري أكثر من ربع قرن.

صادق: أذكر أنك، يا سيّدي، تناولتَ في خواطرك، هذه الفنّ والفنّانين، وقد كثر هؤلاء في زماننا كثرةً مخيفة، وهبط الفن الغنائي هبوطاً مريعاً.

صادقة: كلُّ الفنون هبطت وتراجعت. . الغناء، والتمثيل، والسينما وكلُّ شيءٍ اسمه فنّ.

صادق: فهل نسمع رأيك فيما نحن فيه من هذا الوباء؟.

اعتدل الجبل، واهتمَّ الرأس الكبير، وعبَّر الجبين العريض عمّا يعتمل فيه، ثم قال:

ـ البيت القويّ يحتاج إلى الإسمنت والحديد، أكثر ممّا يحتاج إلى الزينة والزخرفة، وكذلك الأمة الناهضة، تحتاج إلى العباقرة في العلم والصناعة، وليس إلى الرقَّاصين والمغنِّين. . وليس صدفةً ولا عن حسن نيّة، أن توجَّه طاقات شبابنا وبناتنا إلى الرقص والغناء والرسم، ويكون ذلك محور التوجيه في الصِّحافة والإذاعة والتلفزيون، ولا تُوجَّه إلى العلم والصناعة والاختراع. . إنها خطّةٌ استعماريّة تُنفَّذ من أموال الشعب على أيدي بعض الأغرار من المراهقين والمراهقات، المتهالكين على هذا الغناء الماجن المنحلّ، وعلى هذا الرقص الفاجر المثير، ويطلقون عليه اسم الفنّ، ويذهبون إلى تمجيده والإشادة به، وتسليط الأضواء على كلِّ ماجنٍ مستهتر، استهواءً لشبابنا وفتياتنا، في وقتٍ نحن أحوج ما نكون فيه إلى استهوائهم بالبطولات في مختلف ميادينها.

صادق: ما نحن فيه من وباء الفنّ أخطر مما تتحدَّث به يا سيّدي، فقد تجاوز الناس سائر الخطوط الحمر في تعاملهم مع هذا الفن الرخيص. . فنّ الغناء والرقص.

السباعي: إذن. . دعوني أذكر لكم بعض ما كتبتُه عن فنَّاني زماني، وسترون القواسم المشتركة بين أولئك الفنانين في كلِّ زمانٍ ومكان.

صادق: هات يا سيّدي.

السباعي: ليس أسهل على نفوس الشباب في أمةٍ حديثة الوعي، من إغرائهم بالشهرة عن طريق الفن والرقص، وهذا هو سرّ استجابتهم لإغراء خرافة الفنّ، واستمتاعهم بلذَّته.

صادق: صدقت يا سيّدي.

السباعي: وقلت: هل يريد الذين يشجِّعون فينا الفنَّ على حساب العلم، أن ننهزم في الحرب، ونتأخَّر في استكمال وسائل القوة؟.

صادقة: نعم يا جدي.. إنهم يريدون ذلك، ويسعون إليه.

السباعي: أنا لم أسمع عن أمةٍ هزمتْ أمةً أخرى بالفنّ، ولكنَّما هزمتها بالقوة. ومن التضليل أن يُعتبر الفنُّ من وسائل القوة.

صادق: يا ليت قومي يعلمون!.

السباعي: ثمَّ إنَّ إسرائيل لاتُعِدُّ لغزونا فرقاً من الراقصات والمغنّيات، ولكنَّها تعدُّ فرقاً من الفدائيين، وأساطيل في الجوّ والبحر، وقذائف للهلاك والتدمير، فهل يفهم هذا المنحلُّون والببغاوات والمتآمرون والكسالى والوجوديون والمستغربون والمفتونون؟.

صادق: لا يا سيّدي.. لن يفهموا..

صادقة: بعضهم يعرف ويحرف، وبعضهم صمٌّ، بُكْمٌ، عُمْيٌ، فهم لا يعقلون.

السباعي: إذن فليسألوا التاريخ: هل أفَلَ نجمُنا إلا يوم سطعت نجوم المغنّين، وقويت دولة الراقصات في سماء حضارتنا؟.

صادقة: ما سقطت دولة العباسيين، وما انهزمنا وسُحقنا في الأندلس، إلا يوم استنام الناس في أحضان المغنّين والمغنّيات، والراقصين والراقصات.

السباعي: ثمَّ.. أيُّ عاقلٍ مخلص هذا الذي يسعى إلى أن يكون لنا نجومٌ في الرقص والغناء والرسم والتمثيل، قبل أن يكون لنا أبطالٌ في

الحروب، وعلماء في المختبرات، ومخترعون في الصناعات، وأقوياء في الإيمان والأخلاق؟.

فالانصراف إلى الفنّ شغل الذين تمَّ لهم البناء، أمّا الذين لم يبدؤوا بالبناء بعد، أو بدؤوا متأخرين، فمن أكبر الجرائم صرفُهم عن الاهتمام بالبناء، إلى الاهتمام بالرسم والغناء، وعن الاختراع، إلى رقص الإيقاع، وعن صنع الحياة، إلى (رسم الحياة).

صادق: يا ليت قومي يسمعون هذا الكلام.

السباعي: أليس من دواعي الأسى، أن تكون لإسرائيل صواريخها، ومفاعلها النووية، ويكون لنا فِرقٌ للرقص والغناء والتمثيل، وليس لنا صواريخ، ولا أفران ذريّة؟.

صادقة: حالتنا تدعو إلى الرثاء.

السباعي: هاتوا جميع الرسامين، والممثلين والمغنين، والراقصين والراقصات، ثمَّ احشروهم جميعاً، وانظروا: هل يردُّون عنَّا خطر قنبلةٍ ذرية، أو صاروخٍ موجَّه؟.

ثم ليقولوا لنا: هل يخافنا العدوّ إذا كنَّا نحسن الغناء والرقص، أم إذا كنا نحسن صناعة الموت؟.

ولهذا فإني أقول لكلِّ واحدٍ من أولئك اللاهثين وراء الفن:

خذ من أمتنا مئة رسّام، وأعطها طياراً واحداً.

وخذ منها ألف مغنٍّ ومغنّية، وأعطها مخترعاً واحداً.

وخذ منها كلَّ العابثين واللاهين، وأعطها مُجدّاً واحداً.

صادق: يا ليت قومي يقرؤون ويفهمون، ويتدبَّرون ويعملون!.

السباعي: نحن في حاجةٍ إلى مخترعين ومخترعات، أشدّ من حاجتنا إلى فنّانين وفنّانات، ومع ذلك، فكلُّ الجوائز، وكلُّ الفرص، وكلُّ الأنوار تسلَّط على هؤلاء، ويُحرم منها أولئك.

وسكت الطود الأشمّ لحظة، ثم أقبل علينا يلفظ شُواظاً من لهب:

ـ أريد أن أخاطب أولئك الذين لا يسمعون. أو قولوا لهم عني:

أيّها العابثون المراهقون!

أيّها الفنّانون والمغنّون!

أيّتها الراقصات وأيّها الراقصون!

ستكونون أول المنهزمين في معارك البطولات.

ستكونون أول الفارّين منها، إذا لم تُحْيوا قلوبكم بالإيمان، وتفتحوا عقولكم بالعلم، وتسموا بنفوسكم بالأخلاق، قبل أن تنمُّوا أذواقكم بالفنّ، وتُرضوا شهواتكم بالرقص والغناء.

وإذا كان الفنّ يصقل المواهب، وينمّي الشعور بالجمال، فإنَّ الأمة المحاطة بالأعداء، في حاجةٍ إلى ما يفتل السواعد، ويلهب الإيمان، ويقوّي الأخلاق، ويفتح العقول، ويدفع عن الأمة خطر الإبادة أو الاحتلال.

وفيما كان العملاق يصول بنا ويجول، تناهى إلى مسامعنا أصوات تكبيرات العيد، فأنصت لحظة، ثمّ قال في أسى:

ـ لو كبَّرتْ قلوب المسلمين كما تكبِّر ألسنتهم بالعيد، لغيَّروا وجه التاريخ.

ولو اجتمعوا دائماً كما يجتمعون لصلاة العيد، لهزموا جحافل الأعداء.

ولو تصافحت نفوسهم كما تتصافح أيديهم، لقضوا على عوامل الفرقة.

ولو تبسَّمت أرواحهم كما تتبسَّم شفاههم، لكانوا مع أهل السماء.

ولو ضحَّوا بأنانيَّاتهم كما يضحُّون بأنعامهم، لكانت كلُّ أيامهم أعياداً.

ولو لبسوا أكمل الأخلاق، كما يلبسون أفخر الثياب، لكانوا أجمل أمّةٍ على ظهر الأرض.

فهتفنا.. صادقة وأنا وكبّرنا وهلّلنا لهذه المعاني الهائلة التي شعَّتْ بها روح العملاق المفكّر بعمق، المدرك لأمراض المسلمين وأسباب تخلّفهم.. ثمّ سألت صادقة:

ـ من هم أعداء الإصلاح يا عمّي؟.

أجاب العملاق البعيد الغور:

ـ أعداء الإصلاح في كلِّ مجتمعٍ ثلاث فئات:

فئةٌ ترى في الإصلاح فواتاً لمصالحها المعنوية، من جاهٍ أو رئاسة.

وفئة ترى في الإصلاح فواتاً لمصالحها المادية، من مالٍ وشهرة.

وفئة تضيق عقولها عن استيعاب بواعث الإصلاح وفوائده.

صادقة: وأخطر هذه الفئات على حركة الإصلاح؟.

السباعي: الفئة الأولى.. فإذا اجتمعت الفئات الثلاث على محاربة الإصلاح، كان الإصلاح عبئاً لا يحمله إلا أولو العزم من الرجال، ومعركةً لا يثبت فيها إلا أولو الشجاعة من الأبطال.

صادق: وماذا عن الدعاة؟.

السباعي: الدعاة إلى الله المخلصون الصادقون، يتهافت أبناء الدنيا على رضاهم، ليزدادوا به جاهاً على جاههم، والدعاة الكذّابون الدجّالون يتهافتون على أقدام طواغيت الدنيا، ليكسبوا من جاههم جاهاً.

صادقة: وشتّان بين جاهٍ مستمدٍّ من الله، وجاهٍ مستمدّ من الشيطان!.

السباعي: قلوب الدعاة الصادقين شفّافةٌ تُلمح من صفاء وجوههم، وقلوب الدعاة الدجّالين صلبةٌ تنعكس أشعتها على نظرات عيونهم.

قالت صادقة في امتعاضٍ وقرف:

ـ ما أسوأ الدعاة الكذَّابين المستغلِّين! . إنهم يثيرون قرفي واشمئزازي .

فعلَّق الداعية العملاق الإعصار :

ـ إنكم تتألَّمون اليوم لاستغلال بعض الناس دعوة الإسلام والأخلاق، من أجل جرّ المغانم لأنفسهم، من جاهٍ ومال، ممّا آذى سمعة الإسلام، وأضرَّ بالدعوة إلى الأخلاق الإسلامية الصحيحة . . لا تتألَّموا من هذه الظاهرة يا أولادي، بل قاوموها وافضحوها، فإنَّ استغلال الدين، واستغلال ذوي السلطان والقوة للمتظاهرين بالدعوة إلى الله لم ينقطع في كلِّ عصور التاريخ، وبخاصةٍ في تاريخ الإسلام، ولعلَّكم قرأتم في تاريخ المصلحين كيف كانوا في كلِّ عصرٍ يُحارَبون ويُقاوَمون في دعوتهم من قبل المستغلِّين للدين، أكثر من أعدائه المجاهرين بعداوته، ولعلَّكم تعرفون أنَّ أولئك الذين كانوا يقاومون المصلحين ويحاربونهم، كانوا أكثر قوةً وأشدَّ نفوذاً في الجماهير ممّن يقاومون دعوتكم اليوم أو يستغلُّونها، حتى إنكم لتجدونهم أقزاماً بجانب أعداء الإصلاح في الماضي . . وقد ذهب أولئك الدجَّالون والطواغيت جميعاً إلى الجحيم، وبقي المصلحون وحدهم هم خالدين .

قالت صادقة في حياء :

ـ ولكننا نرى الاستغلال في بعض من كنَّا نظنُّهم قدوة .

فثار الإعصار وقال :

ـ يا شباب الإيمان! . ستُفْجَعُون في كثيرٍ ممن تعلِّقون عليهم الآمال، فلا تيأسوا، فإنما أنتم في تجربةٍ إثر تجربة، وحسبكم قلوبكم السليمة، وإخلاصكم النبيل، ولا بدَّ أن تتمخَّض الليالي عن أملكم المنشود، فالله أحنى على دعوته منكم، وأكرم من أن يردَّ دعواتكم، وأعلم من أن لا تبلغه خفقات قلوبكم .

يا شباب الإسلام! إنَّ الإسلام لم يدخل في معركته الكبرى بعد، ولن يدخلها إلا يوم يستوثق من تنظيم صفوفكم، وكفاءة قيادتكم، وحُسن

طاعتكم، وجودة أسلحتكم، ومعرفتكم لأهداف معركته مع أعداء أمتكم، وتفضيلكم أن تموتوا في المعركة شهداء ترتعون في رياض الجنّة، على أن ترجعوا منها أحياء يزهيكم النصر، وترتعون في مفاتن الدنيا.

قالت صادقة:

ـ نريد سماع المزيد من هذه الحكم والتجارب أيها الحكيم المجرِّب.

فابتسم العملاق في ودّ، وهو يسمع كلمات صادقة، وهدأ قليلاً ثمّ قال ثائراً:

ـ من طبيعة الظالمين أن ينادوا بالحرية ليئدوها، ويتحدَّثوا باسم الشعب ليستعبدوه، ويدافعوا عن الفقير لئلا يصبح غنياً، ويقاوموا الطغيان، ليفرضوا طغياناً أشدَّ وأقسى.

صادقة: هذا عين ما نراه في أيَّامنا يا عمّي.

السباعي: من طبيعة الإنسان ـ إلا من رحم الله ـ أن يطالب بالحرية والعدالة والكرامة حين يكون ضعيفاً مضطهداً، فإذا قوي وتحكَّم، كان طاغيةً جائراً مذلاً لكرامات الرجال.

صادق: هذا ما شاهدناه في حياتنا القصيرة التي عشناها حتى اليوم.

السباعي: الفرق بين المستعمر والطاغية، أنَّ المستعمر يعمل على استغلالك، ثمّ لا يبالي بسخطك، والطاغية يعمل على إذلالك، ثمّ لا يعجبه إلا أن ترضى وتثني عليه.

صادق: وتهتف وتصفّق له، إمعاناً في إذلال الكرامات.

السباعي: الطاغية متألِّهٌ مغرور، لا يملك لنفسه ضرّاً ولا نفعاً.

صادق: وكثيراً ما يكون الغرور أخطر من الخيانة، يورد الشعب موارد الخطر.

صادقة: وقد شاهدتُ في التلفزيون حاكماً مغروراً، يلبس إفرنجياً مثل رجال الكوبوي، ويضع البرنيطة على رأسه، والسيكار الغليظ في فمه،

وهو يزور قريةً جمعوا له فيها البدو المقيمين حولها . . كان متألِّهاً مغروراً، يتحدَّث عن انتصاراتٍ وهميّة في استكبارٍ واستعلاء على البدو الذين وُلد في قريةٍ من قراهم الفقيرة . . والبدو والفلاحون البائسون الفقراء يصفِّقون له ويهتفون، وهم يتمرَّغون في ليل الظلم والفقر والمرض والعوز والمسكنة .

صادق: يهتفون له بألسنتهم، وقلوبهم تلعنه، لأنهم يرون الجلادين من عبيده يحيطون به، وعيونهم تقدح بالشَّرر تجاه أولئك التاعسين البائسين .

السباعي: لا تعجبوا . . فكلَّما خالت الجماهير البطولةَ في إنسان، انكشف لها عن صنمٍ منفوخ تزري عبادته، وتقتل مودّته . . الطاغية - يا أولادي - إلـٰهٌ يعبد الشيطان، والطاغية يتزوج الغرور، فيلد ثلاثة أولاد: الحمق، والحقد، والجريمة .

صادقة: وماذا عن الحرية؟ .

السباعي: كلُّ الذين يتباكون على الحرية، هم أعداؤها، أو سيكونون أعداءها .

صادقة: إي والله يا جدي . . أعداء الحرية اليوم هم الذين رفعوها شعاراً من شعاراتهم بالأمس القريب، وما زالوا ينادون بها شعاراً من شعاراتهم اليوم .

صادق: بل هم أعدى أعداء الحرية .

السباعي: تضحِّي الشعوب كثيراً في سبيل حريتها، فإذا نالتها، سجنها الطغاة باسم حماية حريتها . ومن أكبر الخرافات التي تروج في عصرنا الحاضر، أن تسمَّى دكتاتورية الحكم ديمقراطية، وإفقار الشعب اشتراكية، وانحلال الأخلاق تقدُّميّة، وشرُّ الحقد حقدُ الحاكم على خيار الشعب، ومَن أقام حكمه على الحقد والغدر والخداع والكذب، فقد أقامه على حجرٍ متدحرج . ثمّ . . إنَّ لله سيوفاً تقطع رقاب الظالمين، منها أخطاؤهم وحماقاتهم .

صادقـة: زدنا علماً وفقهاً بالظلم والظالمين، زادك الله علماً وفهماً وعدلاً أيها الإعصار الحكيم.

السـباعي: النظام الدكتاتوري حاكمٌ له مظاهر الألوهيـة، وأفعال الشياطين، وشعبٌ تعداده ملايين الأجسام، وله عقل واحد، وأرضٌ تزرع ملايين الفدادين، يسكنها ظالمٌ واحد، ودولةٌ فيها ملايين العبيد، يحكمها جلّاد واحد، وتاريخٌ كان يكتبه الملايين من الصادقين، فاحتكر كتابته كذّابٌ واحد.

صادقة: هائل!.

السـباعي: الدكتاتوريـة: إلغاء ملاييـن العقول، والاكتفـاء بعقل واحد، والازدراء بملاييـن الآراء، وتمجيد رأي واحد، وإهمال ملاييـن الفعّاليات، واستعمال فعّالية واحدة.

صادقة: عظيم جداً يا جدّي الحكيم.

السباعي: والدكتاتورية أعجب عملية (تقمُّص) في تاريخ العقائد: تتقمَّص الملايين في شخص واحد، فتسافر إن سافر، وتقيم إن أقام، وتبكي إن بكى، وتسخف إن سخف، وتهوي إذا هوى.

صادقة: وتحيا إذا مات.

السباعي: هذا لأنَّ العامّة سفينةٌ شراعية تتّجه مع الريح أنَّى اتَّجهت.. ثمَّ إنَّ كبرياء الطغاة من ذلَّة الشعب، وحياتهم من موته، والجماهير الجاهلة تمكِّن جزَّاريها من رقابها وهي تصفِّق لهم.

صادق: الله أكبر! ما أفظع هذه الحقيقة المُرَّة!.

السباعي: والطاغية يتحدَّى صفات الألوهيّة والنبوّة.

صادق: كيف؟.

السباعي: إنَّ الله حين أراد أن يخلق آدم، أخبر الملائكة.

صادق: صحيح.

السباعي: والرسول القائد ﷺ حين أراد أن يخوض معركة بدر، استشار أصحابه.

صادق: صحيح.

السباعي: والله يرحم عباده، والرسول يشفق عليهم، أمّا الطاغية، فلا يخبر بل يأمر، ولا يستشير بل يشير، ولا يرحم ولا يشفق، بل يظلم ويُعنت.

صادقة: استنتاجٌ هائل.

السباعي: والدكتاتورية أبشع ردّةٍ في عصر الذرَّة، إلى عصر الاسترقاق الجماعيّ في العصر الحجريّ الأول.

صادق: وكلُّ الدكتاتوريين جاؤوا على دبابةٍ ومدفع، في انقلاباتٍ عسكرية.

السباعي: هذا صحيح.. فالانقلاب أن تتكلم البندقية بدلاً من اللسان، ويُقنِع المدفع بدلاً من البرهان، ويجتمع السياسيون في السجن بدلاً من البرلمان، وتتحكَّم الأحذية الغليظة في العقول والأذهان.

صادق: هذا هو الواقع المعيش يا سيّدي.

صادقة: هل من مزيدٍ يا جدي الحكيم؟.

السباعي: هل تعرفان دوابَّ الشيطان ومطاياه؟.

وتطلَّع العملاق الحكيم في عيوننا، ثم تابع يقول:

- إنَّ للشيطان دوابَّ يمتطيها، ليصل بها إلى ما يريد من فتنة الناس وإيذائهم. منها علماء السُّوء، ومنها جهلة المتصوِّفة وزنادقتهم، ومنها محترفو السياسة، ومنها طالبو الزعامة، ومنها طواغيت الحكم وزبانيتهم، ومنها المنحلُّون والملحدون من الأدباء والشعراء، ومنها المدَّعون للفلسفة

والحكمة، ومنها الفنّانون في الرقص والغناء، ومنها المرتزقون بالصحافة، ومنها الأغبياء في التفكير، ومنها الآكلون باللحى والعمائم.

وسعل العملاق سعلةً خفيفة، واضعاً ظهر كفِّه على فمه، ثم قال:

ـ وأقوى هذه الدوابّ، وأسرعها خطًى: الشيوعيون والاشتراكيون، وأضعفها وأقصرها مدًى: مجرمو الفقر والتشرُّد والجهالة.

وسألتْ صادقة:

ـ من أين يؤتى الحقُّ يا جدّي؟.

السباعي: لا يؤتى الحقُّ إلا من الدُّخلاء في حشوده، والأغرار في قيادته، والنائمين في حراسته، والفساد في أسلحته.

صادق: وماذا عن القادة والقيادة؟.

السباعي: حين تخلو الساحة من الأبطال، يتمنطق بالسلاح كلُّ جبانٍ خوَّار، وحين تخلو من الزعماء، يتصدَّى للقيادة كلُّ سفيهٍ غرير، وحين تخلو من الأمناء، يتظاهر بالوفاء كلُّ خوَّانٍ حقير، وحين تخلو من الحكماء، يدّعي الفلسفةَ كلُّ جاهلٍ مغرور، وحين تخلو من المجاهرين بالحقّ، يصول فيها كلُّ طاغيةٍ لئيم.

صادق: جميل.. رائع..

السباعي: وإذا تصدَّى للزعامة صغار العقول، سفهاء الأحلام، كان ذلك علامةً على طغيان الأهواء، وانحلال الأخلاق، وتفسُّخ المجتمع.

صادق: بديعٌ جداً.

السباعي: قيادة الأغرار تؤدّي إلى الانهيار، وقيادة الموتورين تشعل النار، وتؤدّي إلى الدَّمار.

صادق: الله أكبر!. هذا تلخيصٌ للواقع.

السباعي: أصعب شيءٍ على السياسيّ المستقيم، أن يرى الدجَّالين

في السياسة، يستهوون الغوغاء بكاذب القول، ومعسول الوعود.

صادق: إنهم هم.. هم.. طغاةٌ ودجَّالون.

السباعي: الحقد الشخصيّ يقتل صاحبَه كمداً، والحقد السياسيّ يعوق المجتمع عن سيره الصحيح، وحقد الطاغية يدمِّر الأمة تدميراً.

صادق: الله أكبر.. أنت تتحدَّث ـ يا سيّدي ـ عن أحوالنا.. عن طواغيتنا.

السباعي: والطاغية يحقِّق لأعداء الأمة من المكاسب، ما لا يستطيعونه بالانتصار في المعارك.

صادق: إي والله.. هذا ما حصل.. دمَّر الطواغيت أمتنا، وحقَّقوا لأعدائنا ما لم يكونوا يحلمون به في يومٍ من الأيام.

السباعي: الطاغية يذلُّ الأمة، ويعزُّ أعداءها.

صادق: وأيُّ ذلٍّ يا سيدي!. إنهم، وأولادهم، وأقرباءَهم، وأعوانهم، ما تركوا لأمتنا كرامة.. أزهقوا الأرواح البريئة، واغتصبوا أعراض الطاهرات العفيفات، وسلبوا الأموال، وأذلّوا الكرامات، وفعلوا ما لم يفعله أعداؤنا التاريخيون المجاهرون بعداوتنا، ولا المستعمرون، ولا الذين احتلُّوا ديارنا..

السباعي: حسبُ الأمّة شقاءً بالطاغية، أن يميت أحرارها، ويُحْيي أشرارها.

كانت الدموع تغسل خدَّيْ صادقة، وهي تستمع إلى الرجل الحكيم الذي يلخِّص واقعنا المأساوي بدقَّةٍ دقيقة، بينما كان العملاق يقول:

ـ حكمُ الطغيان يكشف الدَّناءة المستورة، والحقارة المغيَّبة، كما يكشف الرجولة المغمورة، والفضيلة المشهورة، ولولا الطغاة لما عرفنا أدعياء الحرية من شهدائها، ولا أصدقاء الشعب من أعدائه، ولالتبس على كثيرٍ من الناس مَنْ بكى ممَّن تباكى.

صادق: زدنا، يا سيّدي، فأنت تشفي غليل قلوبنا بحديثك هذا عن الطغاة.

السباعي: لا يخاف الطاغية من شيء، كما يخاف من الحقيقة، ولذلك لا يعتمد على شيءٍ كما يعتمد على الكذب والتمويه، ولا يكره شيئاً كما يكره الصدق والصراحة.

صادق: أصلاً.. لا يترك في بطانته وأعوانه صادقاً ولا صريحاً.. بل لا يجرؤ نائبه إبداء أيّ رأيٍ في حضرته، فالقتل مصير من يقرأ في وجهه، أو يلمح في كلماته عدم الرضى عمَّا يفعل أو يأمر بفعله.

السباعي: في الطغاة صغارٌ وكبار، وصغار الطغاة شرٌّ من كبارهم، وقد يحارب الطاغيةَ مَن كان عوناً له بالأمس، فلا يخدعنَّكم حربُه له، فلو استطاع أن يكون طاغيةً مثله، لظلَّ له وفيّاً.

صادق: هذه معرفةٌ عميقة بنفوس الطغاة.

السباعي: كلُّ إنسانٍ راضٍ بعقله الذي خصَّه الله به، إلا الطاغية، فإنه يأبى إلا أن تصنع يده له عقلاً جديداً، ومن عجيب عقوبة الله له: أن يكون عقله المصنوع، أبلدَ من عقله المطبوع.

صادقة: خيبة الله عليهم.

السباعي: والطغاة يصنعون الأوهام في عقول الأمة، لتستسيغ (وَهْمَ) عظمتهم، وما يستسيغها إلا سفهاء الأحلام والسخفاء.

صادقة: ولكننا نرى كثيراً من المثقفين والعلماء يسيرون في ركاب الطغاة.

وهنا تحرَّك الجبل فوق كرسيّه، وهبَّتْ أعاصير الكرامة على لسانه الذي انطلق يقول:

أولاً: إنَّ الله يعاقب على المعصية في الدنيا قبل الآخرة، ومن عقوبة الله للمجتمع الذي تفشو فيه المعاصي والمظالم، أن يسلِّط عليه الأشرار

والظالمين، من الطغاة وأعوانهم من العلماء والمثقَّفين وسواهم، فأكبر عقوبةٍ للأمة المتخاذلة وجود الطغاة بينها.

ثانياً: لا يتهافت على فُتات عهد الطاغية، إلا الذين لا يجدون ما يأكلون في عهود الحرية، ولا يعتزُّ بالسَّير في ركاب الطاغية، إلا الذين تدوسهم مواكب الأحرار، فعبيد الطاغية يدافعون عنه، إبقاءً على حياتهم، لا على حياته.

صادقة: رائع.. ولن يفلتوا جميعهم من العقوبة في الدنيا قبل الآخرة إن شاء الله.

السباعي: ثالثاً: لا تعجبوا من مغمورين سلَّط عليهم الطاغية بعض الأنوار، أن يحرقوا له البخور، ويمشوا بين يديه بالمزمار، فلولاه لظلُّوا في الظلام مغمورين ليس لهم نهار، إذا الأحرار كان لهم نهار.

صادق: جميلٌ جداً.. ثمَّ ماذا يا سيّدي؟.

السباعي: رابعاً: من علامات انحدار الأمة، أن يتمكَّن أشرارها من حكمها، ثمَّ يتسلَّط هؤلاء الأشرار بعضهم على بعض، فيشغلوها بأحقادهم ومطامعهم عن علاج مشكلاتها، ودرء الأخطار المحدقة بها.

صادق: وعن التنمية التي داستها مطامع الأشرار وخصوماتهم، فيما كان العدوّ الصهيونيّ يعمل ليل نهار في تنمية موارده، وفي مفاعلاته الذريَّة، وفي تطوير أسلحته الجهنَّميَّة.

السباعي: أكبر أعوان الطاغية (سكوت) الصالحين، و(كلام) الطالحين.

صادقة: هذا صحيحٌ جداً.

السباعي: ولكنْ.. هل تعرفون أنَّ أكثر الناس ضحكاً على الطاغية في قرارة أنفسهم، هم المنتفعون منه، ويوم يزول، يكونون أكثر الناس لعناً له، إلا أن يكون فيهم ذِماءٌ من الوفاء والحياء.

صادقة: وقلَّ أن يكون عند أعوان الطغاة أثرٌ منهما.

صادق: هل هناك حكمةٌ في التمكين للطغاة؟.

السباعي: قد يكون من حكمة الله في التمكين للطغاة، أن تقتنع الجماهير أنَّ حكم الشورى أسلمُ طريقٍ بنَّاء للوصول إلى الاستقرار، فلا تُفتن ـ بعد ذلك ـ بمظاهر (البطولة) أبداً.

صادق: هل من أملٍ في أن نرى مصارع الطغاة في حياتنا ياسيِّدي؟.

السباعي: من لوَّث يده بدم الأخيار، أزال الله عِزَّه بأيدي الأشرار.

وإذا أراد الله أخْذ طاغية، زاده عناداً وغروراً.

وفي أحلاك الظلام التي يدبِّر فيها الطغاة مؤامراتهم، تلاحقهم أعين الحقّ، فتفضحهم بغتةً وهم آمنون.

وأول صوتٍ يرتفع من المضطهَدين، هو بدء نهاية الطغاة والظالمين.

صادق: ولكنَّ الناس معهم.

السباعي: الناس معادن، خيارهم في السرّاء، خيارهم في الضرّاء، وخيارهم في التولية، خيارهم في العزل، وخيارهم في الجاه، خيارهم في الخمول، وخيارهم في القوّة، خيارهم في الضّعف، وخيارهم في الجنديّة، خيارهم في القيادة.

صادقة: ومعهم المال.

السباعي: المال سلاحٌ فتَّاك، إن كان بيد المؤمن العامل، فهو سلاحٌ ضدَّ الشرّ والحرمان، وإن كان بيد السفيه الفاجر، فهو سلاحٌ ضدَّ الخير والإحسان، وإن كان بيد الطاغية، فهو سلاحٌ ضدَّ الخُلق والحقّ والحرية والأمان.

صادق: ومعهم الدول الكبرى.

السباعي: مشكلتنا مع هذه الدول الكبرى، أنها تطعمنا ما لا تأكل، وتكسونا ما لا تلبس، وتعطينا ما لا تأخذ، وتحيينا فيما تكره، وتدعم من

أشقيائنا من تشنق أمثالهم في بلادها .

ونفخ جبل الكرامة شُواظاً من نار قلبه ، ثم قال :

ـ من عقوبة الله للطاغية ، أن يفضحه ويكشف تهريجه مَن كانوا سبباً في فرض طغيانه ، ومن عقوبة الله لهم ، أن يفضحوا بأنفسهم صمتهم وطاغوتهم .

صادقة : ولكن بعد خراب البصرة . . بعد تدمير الإنسان . . بعد تدمير الأوطان . . بعد ثلاثين سنة يسمحون بنشر الغسيل الوسخ لأولئك الأوغاد .

السباعي : أساس نكبة أمتنا في القديم والحديث : حكّامها الظالمون ، وأذكياؤها المنافقون ، وعلماؤها الغافلون . . استعمار الأجنبيّ يخلق في الأمة روح الكفاح ، وطغيان الحاكم يقضي على هذه الروح . . ولكنْ . . من اطمأنَّ إلى القوة فهو مغلوب ، ومن اطمأنَّ إلى الجاه فهو مخلوع ، ولا يدوم لطاغيةٍ سلطان .

وتنحنحت صادقة ، فالتفت إليها الرجل العملاق ، وسألها عمّا بها ، فقالت :

ـ الحقّ . . إنَّ قضية المرأة تشغلني كثيراً ، وأظنُّها تشغلك أيضاً يا جدّي العزيز .

تحرَّك الرجل العملاق في كرسيِّه ، ثم قال :

ـ قضية المرأة ، يا بنتي ، هي قضية كلِّ أبٍ وكلِّ ابن ، وما دام في الدنيا آباءٌ وأبناء ، ففي الدنيا احترامٌ عميق لكرامة النساء ، فاسألي عنها ما بدا لك ، لأنها تهمّني جداً ، وموقفي منها هو موقف المدافع عن كرامتها ، وحقوقها المشروعة ، وكنت أحاول دائماً إبعادها عن مجال الاستغلال لأنوثتها ، بما يرهقها ، ويؤدّي إلى شقائها ، رجاء ألّا تقع فيما وقعت فيه أختها في الحضارة الغربية ، ممّا ضجَّ منه عقلاؤها ومفكِّروها الأحرار .

ـ عظيم . .

ـ ثم إنَّ قضيّة المرأة هي قضية كلِّ مجتمع في القديم والحديث ،

فالمرأة تشكِّل نصف المجتمع من حيث العدد، وهي أجمل ما في المجتمع من حيث العواطف، وأعقد ما في المجتمع من حيث المشكلات، ومن هنا كان من واجب المفكّرين أن يفكّروا في قضيتها دائماً على أنها قضية المجتمع، أكثر ممّا يفكّر فيها على أنها قضية جنسٍ مبهج.

بدت الحماسة ظاهرةً على صادقة، وهي تسمع هذه الكلمات المشجِّعات، فسألت:

ـ ماذا عن مكانة المرأة وحقوقها قبل الإسلام؟.

فأجاب المفكّر العملاق:

ـ إنَّ المرأة قبل الإسلام، لم تنل مكانتها الاجتماعية، وحقوقها القانونية التي تستحقّها، بما يتّفق مع رسالتها العظيمة التي خُلقت من أجلها، ولا مع مكانتها التي ينبغي أن نعترف بها.

ـ مثلاً؟.

ـ مثلاً.. خذي المرأة عند اليونان.. كانت محرومةً من الثقافة، لا تسهم في الحياة العامة بقليلٍ ولا كثير، وكانت محتقرة، حتى سمَّوها رجساً من عمل الشيطان، أمّا من الوجهة القانونية، فقد كانت المرأة عندهم كسَقَط المتاع، تباع وتُشترى في الأسواق، وهي مسلوبة الحرية والمكانة في كلِّ ما يرجع إلى حقوقها المدنيّة، ولم يعطوها حقاً في الميراث، إلى آخر ما هنالك من المخازي والمظالم التي أنزلوها بها.

ـ أعوذ بالله.

السباعي: وسوف تستعيذين بالله أكثر، عندما تعلمين أنَّ المرأة، في أوج حضارة اليونان، قد تبذَّلت، واختلطت بالرجال في الأندية والمجتمعات، فشاعت الفاحشة، حتى أصبح الزنى غير منكر، وحتى غدت دور البغايا مراكز للسياسة والأدب.

صادق: أعوذ بالله من هذا الاستغلال للمرأة، واللّهاث وراء الشهوات.

السباعي: وفي أيام الرومان كانت حال المرأة كحالها أيام اليونان، بل أسوأ. وفي شريعة حمورابي كانت المرأة تُحسب في عداد الماشية المملوكة، حتى إنَّ من قتل بنتاً لرجل، كان عليه أن يسلِّم بنته إلى وليّ المقتولة، ليقتلها أو يتملَّكها.

صادقة: يا لطيف.. شريعةٌ همجيّة.

السباعي: وعند الهنود، وفي شريعة مانو، تبقى المرأة قاصرةً طوال حياتها، ولم يكن لها حقٌّ في الحياة بعد وفاة زوجها، بل يجب أن تموت يوم موت زوجها، وأن تُحرق معه وهي حيّةٌ على موقدٍ واحد.

صادق: وهل ما يزال هذا الأمر معمولاً به حتى الآن؟.

السباعي: لا.. فقد استمرت هذه العادة حتى القرن السابع عشر، ثم أُلغيت على كرهٍ من رجال الدين الهنود.. وكانت المرأة تُقدَّم قرباناً للآلهة لترضى، أو تأمر بالمطر أو الرزق.

صادق: يا لطيف!. ما هذا التخلُّف؟.

السباعي: وفي بعض مناطق الهند القديمة شجرة، يجب أن يقدِّم لها أهل المنطقة فتاةً في كلِّ سنةٍ لتأكلها.

صادقة: أوباش.

السباعي: وجاء في شرائع الهندوس: «ليس الصبر المقدَّر، والريح، والموت، والجحيم، والسُّمُّ، والأفاعي، والنار، أسوأ من المرأة».

صادقة: أوباش.

السباعي: واليهود يعتبرون المرأة لعنة، لأنها أغوت آدم، وقد جاء في توراتهم: «المرأة أمرُّ من الموت، وإنَّ الصالح أمام الله ينجو منها، رجلاً واحداً بين ألفٍ وجدتُ، أمَّا امرأة، فبين كلِّ أولئك لم أجد».

صادقة: أعوذ بالله من شرورهم.

السباعي: وكانت بعض طوائف اليهود تعتبر البنت في مرتبة الخادم، وكان لأبيها الحقُّ في أن يبيعها قاصرة، وما كانت ترث إلا إذا لم يكن لأبيها أبناء.

صادقة: أوباش.

صادق: وعند النصارى؟.

السباعي: لقد هال رجالَ المسيحية الأوائل ما رأوا في المجتمع الروماني من انتشار الفواحش والمنكرات، وما آل إليه المجتمع من انحلالٍ أخلاقي شنيع، فاعتبروا المرأة مسؤولةً عن هذا كلِّه، وقرَّروا أنَّ الزواج دنسٌ يجب الابتعاد عنه، وأعلنوا أنَّ المرأة باب الشيطان، وأنها يجب أن تستحيي من جمالها، لأنه سلاح إبليس للفتنة والإغراء.

صادقة: ما هذا؟

السباعي: وفي عام ٥٨٦م أي في أيام شباب النبيّ ﷺ، عقد الفرنسيون مؤتمراً للبحث: هل تُعدُّ المرأةُ إنساناً أم غير إنسان؟ وأخيراً قرَّروا أنها إنسانٌ خُلقتْ لخدمة الرجل فحسب.

صادقة: شيءٌ يثير الغثيان.

السباعي: وكان القانون الإنكليزي حتى عام ١٨٠٥م يبيح للرجل أن يبيع زوجته، وقد حُدِّد ثمن الزوجة بستة بنسات (أي نصف شلن = ربع ليرة سورية).

صادقة: أوباش.

السباعي: ولمّا قامت الثورة الفرنسية، في نهاية القرن الثامن عشر، لم تشمل بحنوِّها المرأة، فنصَّ القانون المدني الفرنسي على أنَّ المرأة ليست أهلاً للتعاقد دون رضا وليِّها، وعلى أنَّ القاصرين هم: الصبيّ والمجنون والمرأة.

صادق: وعند العرب؟.

السباعي: كانت المرأة في الجاهلية مهضومةً في كثيرٍ من حقوقها، فليس لها حقُّ الإرث، وليس لها على زوجها أيُّ حقّ، وكانوا يتشاءمون من ولادة الأنثى، وكانت بعض القبائل تئدها خشية العار أو الفقر.. إلى غير ذلك من الأمور المهينة لها.

وانبرت صادقة تقول بحزنٍ وألم:

ـ دعنا، يا جدّي العزيز، من هذه المواقف والتشريعات المخزية، وحدِّثنا عن المرأة في ظلِّ الإسلام العظيم.

ابتسم الرجل العملاق ابتسامته الآسرة، ثم قال:

ـ معكِ كلُّ الحقِّ يا بنتي، فالحديث عن أوضاع المرأة في المجتمعات الجاهلية مؤلمٌ جداً، ولذلك، سأنتقل إلى الحديث عن ذلك الصوت المنطلق من السماء على لسان محمد ﷺ، ليضع الميزان الحقّ لكرامة المرأة، ويعطيها حقوقها كاملةً غير منقوصة، ويرفع عن كاهلها وزر الإهانات التي لحقتْ بها عبر التاريخ، ويعلن إنسانيتها الكاملة، وأهليتها الحقوقيّة التامّة، ويصونها من عبث الشهوات، وفتنة الاستمتاع بها استمتاعاً حيوانياً جنسياً، ويجعلها عنصراً فعّالاً في نهوض المجتمعات، وتماسكها، وسلامتها.

صادقة: عظيم.. فهل تلخِّص لنا، يا عمَّنا العزيز، المبادئ الإصلاحية التي جاء بها الإسلام، حول المرأة؟.

السباعي: أستطيع تلخيص تلك المبادئ بما يلي:

أولاً ـ المرأة كالرجل في الإنسانية، سواء بسواء.

ثانياً ـ دفعَ الإسلامُ عنها اللعنة التي كان يلصقها بها رجال الديانات السابقة، فلم يجعل عقوبة آدم بالخروج من الجنّة ناشئاً منها وحدها، بل منهما معاً.. من آدم وحواء، عليهما السلام.

ثالثاً ـ جعل المرأة أهلاً للتديُّن والعبادة ودخول الجنّة، إن أحسنتْ،

ومعاقبتها إن أساءت، كالرجل سواء بسواء.

رابعاً ـ حارب التشاؤم بها، والحزن لولادتها.

خامساً ـ حرَّم وأدها، وشنَّع على ذلك أشدَّ تشنيع.

سادساً ـ أمر بإكرامها، بنتاً، وزوجة، وأمّاً، وأختاً..

سابعاً ـ رغَّب في تعليمها كالرجل.

ثامناً ـ أعطاها حقَّ الإرث، أمّاً، وزوجة، وبنتاً، وأختاً، كبيرةً كانت أو صغيرة، أو حملاً في بطن أمِّها.

تاسعاً ـ نظَّم حقوق الزوجين، وجعل لها حقوقاً كحقوق الرجل.

عاشراً ـ نظَّم قضيّة الطلاق بما يمنع تعسُّف الرجل فيه.

حادي عشر ـ حدَّ من تعدُّد الزوجات، فجعله أربعاً، وكان عند العرب وغير العرب غير مقيَّدٍ بعددٍ معيَّن، وشرط العدل بينهنّ، وإلا.. فواحدة.

ثاني عشر ـ جعلها قبل البلوغ تحت وصاية أوليائها، وجعل ولايتهم عليها ولاية رعاية وتأديب وعناية بشؤونها، وتنميةٍ لأموالها، لا ولاية تملُّكٍ واستبداد. وجعلها بعد البلوغ كاملة الأهليّة للالتزامات المالية، كالرجل، سواء بسواء.

وسكت الرجل العملاق لحظات، ثم تابع يقول:

ـ ونتيجةً لهذه المبادئ، يحقُّ للمرأة المسلمة أن تفاخر نساء العالم قاطبة، بسبق تشريعات الإسلام المنصفة وحضارته الإنسانية السامية جميعَ شرائع العالم وحضاراته إلى تقرير حقوقها، والاعتراف بكرامتها، اعترافاً إنسانياً نبيلاً لا يشوبه غرضٌ ولا هوى، ولا يدفع إليه قسرٌ ولا ضرورة.

صادق: يا سلام!. معلوماتٌ رائعة، سوف أحفظها، وأفهمها جيداً، وأفاخر بها زملائي، وأعلِّمهم إياها إن شاء الله.

السباعي: لكَ هذا يا بنيّ، فعلى ضوء هذه المبادئ الإصلاحية

الجذرية التي أعلنها الإسلام، قام في الدنيا لأول مرّة، مجتمعٌ تُحترم فيه المرأة كإنسانٍ كامل الأهلية، وتلقى من المجتمع الاحترام اللائق بها، زوجةً وأمّاً صانعةً للأبطال والعظماء، وتصان سمعتها عن اللَّغط والأقاويل السيّئة، بعدم اختلاطها المشبوه بالرجال، إلا في أماكن العبادة، ومجالس العلم، ومعارك التحرير. .

صادقة: ومعنى هذا جواز اختلاط النساء مع الرجال في هذه المواطن!.

السباعي: نعم. . وفي هذه الأماكن كانت لها مجالسها الخاصة بها، ولباسها المحتشم، ووقارها المتديّن، فما كانت تتعلّق بها العيون، ولا تتطلّع إليها النفوس، بل كانت إذا مرَّت يغضُّ الرجالُ عنها أبصارَهم حياءً، وإذا جلست تنصرف عنها الوجوه احتراماً، وإذا حاربت، تخفق لها القلوب إكباراً واحتراماً.

صادق: هذا في عصور الازدهار، فهل كان كذلك شأنها في عصور الانحطاط؟.

السباعي: لا. . فقد أُهملت المرأة في عصور الانحطاط، وعُطِّلتْ عن أداء رسالتها الاجتماعية التي حمَّلها إياها الإسلام، ولكن. . ينبغي أن نلاحظ أنه في تلك العصور المظلمة، بقيت حقيقتان قائمتان:

صادقة: أولاهما؟.

السباعي: أولاهما: أنَّ حقوقها التي قرَّرها الإسلام ظلَّت مقررةً في كتب الفقهاء، برغم أنَّ المجتمع لم يكن ينفِّذ منها كثيراً، وهذا لأنها حقوقٌ ثابتة جاء بها تشريعٌ إلـهيّ خالد لا يجوز عليه التغيير والتبديل.

صادق: وثانيتهما؟.

السباعي: ثانيتهما: يا أولادي، أنَّ عفَّتها، وسمعتها العطرة، وقيامها بواجبها في أسرتها، ظلَّت مستمرةً خلال هذه العصور، برغم كلِّ

الاضطرابات والانحرافات التي أصابت المجتمع الإسلامي في عصور الانحطاط .

صادقة : وفي هذا القرن العشرين يا جدّي العزيز؟ .

السباعي : في هذا القرن بدأ اتصالنا بالحضارة الغربية ، فاتجهت أفكار المصلحين الاجتماعيين إلى معالجة قضيّة المرأة عندنا ، بعد أن وصلت إلى ما وصلت إليه منذ عصور الانحطاط ، من الإهمال ، والافتئات على كثيرٍ من حقوقها ، حتى غدت عاطلةً عن أيِّ تأثيرٍ فعّال في تطوُّر مجتمعنا ، والنهوض بأمتنا .

صادقة : وكيف سلك المصلحون في معالجة قضية المرأة؟ .

السباعي : كانوا فريقين مختلفين في كثيرٍ من الآراء الإصلاحية .

فأمّا الفريق الأول : فيتمثَّل في الذين درسوا الإسلام ، وعرفوا ما جاء فيه من إصلاحٍ عظيم لشؤون المرأة ، والذين آمنوا بوجوب احتفاظ المرأة عندنا بخصائصها العربية الإسلامية . . هؤلاء نادوا بوجوب الاستفادة من تراث الإسلام ، وتجارب الأمم ، في إصلاح المرأة وإنهاضها .

صادق : والفريق الثاني؟ .

السباعي : تمثَّل الفريق الثاني في أولئك الذين بهرتهم الحضارة الغربية ، وغرَّتهم مظاهر حياة المرأة الغربية ، فانطلقوا ينادون بوجوب اتباع النهج الغربي في رقيّ المرأة عندنا ، وإنهاضها من كبوتها .

صادق (على استحياء) : ما رأيك ، يا سيّدي ، في الزواج المبكِّر للشبّان والشابات؟ .

تبسَّم الرجل العملاق ، وهو يطالع في وجهي الحياء من هذا السؤال الذي ما سألته لنفسي ، بل لأعرف رأيَ هذا الرجل الحكيم في هذه المشكلة التي أراها في عشرات الشبّان من أقاربي . . ثم قال السباعي العظيم :

ـ أنا من أنصار الزواج المبكِّر نسبيّاً . . فالزواج المبكِّر أحفظُ لأخلاق الشباب، وأدعى إلى شعورهم بالمسؤولية، وهو أفضل لصحة الزوجين، وللزوجة بصورةٍ خاصة.

ونظر الشيخ الجليل في وجوهنا بحنانٍ ثم تابع يقول:

ـ وأريد، بهذه المناسبة، أن أتحدَّث عن تأخُّر الشباب والشابات، وبخاصةٍ الطلاب والطالبات ـ في الزواج إلى الوقت الذي يضمنون فيه مستقبلهم بعد تخرُّجهم. . وهذه ظاهرةٌ خطيرة أدَّتْ إلى مساوئ اجتماعية كثيرة. .

إنَّ الزواج إذا يُسِّرت وسائله، وقُضي على التقاليد البالية فيه، يصير أمراً عاديّاً جدّاً، فالطالب الذي ينفق عليه أبوه، يستطيع أن يضمَّ إليه زوجةً في الغرفة التي يسكن فيها، دون أن يرهق والده.

فسألت صادقة: وحمرة الخجل تورِّد خدَّيها الصغيرين:

ـ والأولاد؟

وأجاب الشيخ الجليل:

ـ يجب أن نفرِّق بين الزواج وبين إنجاب الأولاد، فقد صار من الممكن علمياً الآن، إيقاف إنجاب الأولاد إلى الوقت الذي يصبح فيه الزوجان قادرين على الإنفاق على الأولاد.

المهمّ أنَّ تبكير شبابنا وشاباتنا في الزواج يعصم أخلاقهم من الانحراف، ويهدِّئ أعصابهم، ويقيهم أخطار الانفعالات النفسية ذات الأثر الضارّ في دراستهم، واتجاههم السلوكي في الحياة.

قرأ الرجل العملاق سؤالاً يدور في خلدي، فسدَّد إليَّ نظرةً أبويّة حانية وقال:

ـ سلْ، يا بنيّ، عمَّا يبدو لك، فنحن في مجلس علم.

فسألتُه، في خجل، عن رأيه في تعدُّد الزوجات، فأفاض إفاضةً

لا مزيد عليها، وكان مما قال:

ـ أنا مع تعدُّد الزوجات، برغم أنني لم أتزوج إلا زوجةً واحدة، ولم أفكِّر في الزواج من أخرى.

صادقة: كيف؟

السباعي: اسمعي يا بنتي.. اسمع يا ابني.. شريعة الله حين أباحت التعدُّد، تركت الباب مفتوحاً لمعالجة الضرورات الفردية والاجتماعية، ولم ترغِّب في ذلك، ولم تنفِّر منه، لأنَّ طبيعة الإنسان تغني عن الترغيب أو التنفير من ذلك.. ففي فطرة كلِّ إنسانٍ ألاّ يتحمَّل طائعاً مختاراً إلا زوجةً واحدة، وألاّ يهدأ ولا يستقرّ إلا بذلك، ولكنَّ التشريع الخالد هو ما وجد الناسُ جميعاً حاجاتهم فيه، وما وجدتْ فيه الأممُ طلباتها في مختلف ظروفها وأحوالها.

صادق: إذن.. في التعدُّد حلولٌ لبعض المشكلات؟.

السباعي: أجل.. وهذا ما قرَّره كثيرٌ من عقلاء أوروبا وأمريكا ومفكِّريها المنصفين، الذين دعوا مجتمعاتهم إلى الاستفادة من نظام التعدد في الإسلام.

صادق: ولكن دينهم يمنع التعدد.

السباعي: لا.. دينهم لم يمنع التعدد.. بل هم الذين منعوا التعدد، وإذا عدتَ إلى كتابي: (المرأة بين الفقه والقانون) فسوف ترى ذلك جليّاً واضحاً.

صادق: سأعود إليه، وسوف أدرسه بإمعانٍ إن شاء الله.

السباعي: فإذا كانت بعض الأمم تفكِّر في الاستفادة من نظام التعدد عندنا، لمعالجة أخطر مشكلاتها الاجتماعية بعد الحرب العالمية الثانية، وبعد الحرب الأولى، أفَلسنا نحن معرَّضين لمثل ما تعرَّضت له تلك الأمم؟ ألسنا نتهيَّأ لخوض معارك طاحنة مع إسرائيل؟ ونحن نعلم أننا لن نخوضها مع إسرائيل وحدها، وقد لا نخوضها نحن وحدنا، فالحرب المقبلة ربما

كانت أخطر حروبٍ تخوضها أمتنا في تاريخها الطويل . . إنها ستكون أخطر من معاركنا مع التتار، ومن معاركنا مع الصليبيين، ومن معاركنا مع الفرس والروم، وأنا لا أشكّ أنَّ أمتنا بعد هذه الحروب، أو خلالها، سوف تجد في نظام التعدُّد أكبر عونٍ لها على بقائها صامدةً في المعركة، يمدُّها بقوافل المجاهدين، ويعوِّض بعد الحرب ما أفنته الحرب من شبابٍ ورجال . . وأنا لا أقول هذا خيالاً، بل إنني أرى بوادره منذ الآن، وليس من الحكمة أن نضع أيدينا على عيوننا لئلا نرى الحقائق .

صادق : ما توقَّعتَه حدث يا سيّدي في حرب حزيران سنة ١٩٦٧ وفي حرب رمضان ١٩٧٣ وفي حروب العراق مع إيران، ومع دول التحالف الثلاثيني، والمخبَّأ أعظم، والله أعلم .

السباعي : أنا لا أعرف عمّا تتحدَّث، ولكنني أرى إسرائيل تحاول أن تحشر في الأرض المحتلة بعض الملايين وهي لا تحسب أيَّ حسابٍ لمشكلة معيشة تلك الملايين، وكلُّ همِّها أن تكثر من تعداد سكانها باستقدام من تستطيع من يهود العالم، لأغراضٍ سياسية عدوانية .

صادق : هذا صحيحٌ جداً يا سيّدي .

السباعي : فكيف نستجيز لأنفسنا ـ نحن العرب خاصةً ـ أن نُخدع بالنظريات التي يروِّجها علماء اليهود أنفسهم، حول وجوب تحديد النسل، مع أنَّ أراضينا واسعة، تتَّسع لعشرة أضعاف سكانها الحاليين؟ .

صادق : إذن . . أنت تدعو، يا سيّدي، إلى تعدد الزوجات .

السباعي : أنا لا أدعو إلى أن يعدِّد كلُّ متزوجٍ الآن زوجاته، ولكني أدعو إلى جعل مبدأ التعدُّد مسموحاً به من غير قيود، ما عدا قيد القدرة على الإنفاق، ليستطيع من تُلجئه ظروفه الخاصة إلى التعدد، ولتستطيع الأمة في حالات الحروب والأزمات التي يقلّ فيها الرجال، وتكثر النساء، أن تستفيد من تشريع التعدد، بما يسدُّ به نقص الرجال، وتُكفل به حياة النساء، فيحال بينهنّ وبين التشرُّد والتسكُّع، وبذلك تُحفظ كرامتهنّ، ويصان المجتمع من

كثرة الفواحش وازدياد الأولاد غير الشرعيين، كما يقع الآن في أوروبا.

وتنحنحتْ صادقة كعادتها عندما تريد تغيير الموضوع، فأقبل عليها الشيخ الجليل، يحثُّها على الكلام، فقالت:

ـ أريد أن أعرف رأيك، يا جدّي، في عمل المرأة بالسياسة.

وتحرَّك الجبل في كرسيّه، ثم أجاب:

ـ من المؤكَّد أنَّ المرأة المسلمة لم تشتغل في السياسة، ولم تسهم في الأحداث السياسية التي مرَّت بالمسلمين في كلِّ أدوار التاريخ، مع أنَّ الإسلام رفع مكانتها، وساواها في الأهلية القانونية بالرجل، ورفع عنها الغبن الذي كان لحق بها في مختلف البيئات والشعوب.

صادقة: لماذا؟.

السباعي: لأنَّ الإسلام يرى أنَّ من الخير للمرأة ولأسرتها وللمجتمع، أن تتفرَّغ لشؤون الأسرة، وتهتمّ بها، ولذلك أسقط عنها تكاليف المعيشة، فألزم زوجها بالإنفاق عليها، مع أنها أهلٌ لأن تبيع وتشتري وتزاول كلَّ أعمال الكسب.. كما ألزم أباها بالإنفاق عليها حتى تتزوج، لتكون متمرِّسةً بأعمال البيت تحت إشراف أمِّها، فكأنها، وهي في البيت تحت رعاية أمِّها وأبيها، في مدرسة الفنون النسوية: الأمُّ تعلِّم، والأب ينفق.

صادقة: ولكن.. أليس في هذا امتهانٌ لكرامة المرأة؟.

السباعي: بل قولي: إنَّ الإسلام بهذا الموقف الحكيم، قد صان كرامة المرأة، دون أن يسلبها حقوقها، وصان سعادة الأسرة، فلم يلزم الزوجة بترك البيت لتشتغل بشغلٍ آخر مما يعمل فيه الرجال، من سياسةٍ أو تجارة أو غيرهما..

صادق: كلامٌ جميل.

السباعي: ومن هنا نفهم سرَّ عدم اشتغال المرأة المسلمة بالسياسة في جميع أدوار التاريخ، مع ما نالته من حقوقٍ تمكِّنها من الاشتغال بالسياسة،

ولكنها أدركت واجبها الأول في الحياة، وهي أن تكون أمّاً وربّة بيت.

صادقة: ولكن المرأة الغربية على النقيض من هذا.

السباعي: بل إن موقف المرأة السويسرية يشبه هذا الموقف.. فهي قد نالت حقوقها، وتساوت مع الرجل في حقوقه، ومنها الحقّ السياسي، ومع ذلك لم تستعمل هذا الحقّ، ولا تريد أن تستعمله، لأنّها تفضّل أن تتفرّغ لبيتها وأولادها، على أن تخوض المعارك السياسيّة بخصوماتها ومشكلاتها.

صادقة: ولكنّ المرأة المسلمة اليوم، لم تبق على ما كانت عليه، قابعة في بيت الزوجيّة، بل خرجت إلى الشوارع والمنتديات، ونالت حقوقاً سياسيّة كالرجل، كحقّ الانتخاب وحقّ الترشيح للنيابة في المجالس النيابيّة.

السباعي: لكنّي أريد أن أسجّل هنا للتاريخ والحقيقة، أنّها لم تنل حقّ الانتخاب والترشيح بإرادة الشعب الحرّة، وإنما نالتهما في غيبة الحياة النيابيّة، وقيام الانقلابات العسكريّة، أو الحكم الفرديّ المستبدّ.

صادقة: لكن.. هل تمنع مبادئ الإسلام المرأة أن تكون ناخبة ونائبة؟.

السباعي: لا.. ليس في نصوص الإسلام الصريحة ما يسلب المرأة أهليّتها للعمل النيابيّ، ولكنّنا إذا نظرنا إلى الأمر من ناحية أخرى، نجد مبادئ الإسلام وقواعده تحول بينها وبين استعمالها هذا الحق، لا لانعدام أهليّتها، بل لأمور تتعلّق بالمصلحة الاجتماعيّة.

صادق: هذا صحيح.. فرعاية الأسرة توجب على المرأة أن تتفرّغ لها، ولا تنشغل بشيء عنها.

السباعي: أحسنت يا ولدي.. ثم أضف إلى ذلك أن الإسلام يحرّم اختلاط المرأة بالأجانب، ويحرّم خلوتها بهم.

ويحرّم الإسلام على المرأة كشف غير الوجه والكفّين . .

كما يحرّم سفرها وحدها خارج بلدتها بدون محرم .

وهذه الأمور الأربعة التي تؤكدها نصوص الإسلام، تجعل من العسير، إن لم يكن من المستحيل، على المرأة أن تمارس النيابة في ظلّها .

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، نرى الإسلام يجعل للمصلحة العامة الاعتبار الأول في تشريعه، فما كانت تقتضيه المصلحة العامة أباحه، وما لا تقتضيه المصلحة العامة منعه أو حذّر منه . مفهوم؟ .

صادق وصادقة : مفهوم يا سيّدي .

السباعي : وإذا أردنا أن نناقش نيابة المرأة من حيث المصلحة العامة، نرى مضارَّها أكثر من فوائدها .

صادقة : كيف؟ .

السباعي : من مضارّها إهمال البيت وإهمال شؤون الأولاد، وإدخال الخصومات الحزبيّة إلى بيتها وأولادها، واشتغال المرأة بالسياسة من المشكلات التي لا ينكرها منصف، فهي عاطفيّة، وتتأثر بالدعاية إلى حدٍّ كبير .

وسدّد الشيخ الجليل نظراته إلى صادقة وهو يقول :

- ثمّ ماذا نفعل بالأمومة؟ هل نحرم النائبة أن تكون أمّاً؟ أليس في هذا ظلم لفطرتها وغريزتها، وظلمٌ للمجتمع نفسه؟ .

أنا لا أعرف الفائدة التي تجنيها الأمّة من نجاح بعض النساء في النيابة؟؟

هل سيفعلن ما يعجز الرجال أن يفعلوه؟ .

هل سيحللن من المشكلات ما يعجز الرجال عن حلّها؟ .

صادقة : من أجل المطالبة بحقوقهنّ . . من أجل مساواتها بالرجل . . لها مثل حقوقه .

السباعي: إن كانت حقوقاً يقرّها الإسلام، فكلُّ رجل مطالَب بالدفاع عنها.

صادقة: ومن أجل إثبات كرامة المرأة، وشعورها بإنسانيتها.

السباعي: هذا ما يروّجه دعاة التغريب.. وإلا.. فهل منع المرأة من استخدام هذا الحقّ دليلٌ على امتهان كرامتها وإنسانيتها؟.

هل منعُ رجال الجيش من الاشتغال بالسياسة دليل على امتهان كرامتهم وإنسانيتهم؟ أليست قوانيننا تمنع الموظف من الاشتغال بالتجارة؟ فهل هذا يعني أنه ناقص الأهليّة؟ إنّ مصلحة الأمّة قد تقضي بتخصيص فئات منها بعمل لا تزاول غيره، وليس في ذلك غضٌّ من كرامتها، وانتقاص من حقوقها، فلماذا لا يكون عدم السماح للمرأة بالاشتغال بالسياسة هو من قبيل المصالح التي تقتضيها سعادة الأمّة، كما تقتضي تفرغ الجندي لحراسة الوطن، دون اشتغاله بالسياسة؟.

وهل تفرُّغ الأمّ لواجب الأمومة، أقلُّ خطراً في المجتمع من تفرّغ الجندي لحراسة الوطن، وتفرّغ الموظف للإدارة دون التجارة؟.

سكت الرجل العملاق لحظة، عدّل فيها جلسته، ثم تابع يقول:

ـ لنكن صريحين في معالجة هذا الموضوع، فأنا لا يخيفني أن أُتَّهم بالجمود والرجعيّة وعداوة المرأة، بمقدار ما يهمّني أن أذكر آرائي بكلّ حريّة، وأن أنبّه أمّتي إلى الأخطاء والأخطار.

لقد وفدت إلينا عدوى اشتغال المرأة بالسياسة من الغرب، ومع أنّ الغرب لم يعط المرأة هذا الحقّ إلا بعد مئات السنين من نهضته، نحبُّ أن نتساءل: ماذا كانت نتيجة هذه التجربة عند الغربيين؟.

إنّ أوّل شيء يبدو للمتتبّع لهذه القضيّة، تناقص عدد النائبات سنة عن سنة، ومعنى ذلك، أن الغربيّ بدأ يشعر بعد التجربة، أن إعطاء المرأة حقَّ الاشتغال بالسياسة لا فائدة منه، إن لم يكن قد عمل على تفكّك الأسرة، أو أنّ المرأة نفسها أصبحت عازفة عن الاشتغال بالسياسة والنيابة عن الشعب.

وثاني الملاحظات ـ وقد زرت أوروبا أربع مرات، أقمت في بلادها بضعة شهور ـ أنّي لم أحسَّ بأثر المرأة الغربيّة بالسياسة عندهم بوجه عام، وفي المجالس النيابيّة بوجه خاصّ، ولقد زرت مرّة مجلس العموم البريطاني، وحضرت جلسة طويلة من جلساته، فلم أشاهد نائبة واحدة من نائباته، بل كنّ كلّهنّ غائبات!.

وثالث الملاحظات، أنّ المرأة السويسريّة ما تزال حتى الآن ترفض باختيارها أن تمارس حقَّها السياسيَّ، وفي كلِّ مرة تُستفتى في هذا الموضوع، يكون جواب (٩٥٪) منهنّ رفض الاشتغال بالسياسة، هذا مع العلم أنّ سويسرا من أرقى بلاد العالم الحديث، وأنّ نساءها لا يُتّهمن بالجمود والرجعية، والرضا بالقيود والأغلال، كما يحلو لبعض المتمردات عندنا أن يتّهمن زميلاتهنّ اللاتي يعلنّ رفضهنّ الاشتغال بالسياسة.

صادق: يعني؟

السباعي: يعني أني أحبُّ أن أعلن بكلّ صراحة، أنّ اشتغال المرأة بالسياسة، يقف الإسلام منه موقف النفور الشديد، إن لم أقل موقف التحريم. لا لعدم أهليّة المرأة لذلك، بل للأضرار الاجتماعيّة التي تنشأ عنه، وللمخالفات الصريحة لآداب الإسلام وأخلاقه، وللجناية البالغة على سلامة الأسرة وتماسكها، وانصراف المرأة عن معالجة شؤونها بكل هدوء وطمأنينة.

أردت أن أغيّر الموضوع، فلديّ أسئلة كثيرة حول كثير من القضايا، فسألت المصلح الكبير عن تعليم المرأة، وموقف الإسلام منه، فأجاب:

ـ إنّ الإسلام يحثّ على العلم، ويرغّب فيه الرجال والنساء على السواء، وفي تاريخنا مئات العالمات والأديبات والمحدّثات.. وفي العصور الأخيرة كانت المرأة عندنا محرومة من التعليم، وكان لجهلها أثر كبير في تأخر المسلمين، لأن الأمهات الجاهلات، ينجبن أبناء جاهلين خاملين.

صادقة: هل لك ملاحظة على تعليم الفتاة يا عمّي العزيز؟.

السباعي: كلُّ ما ألاحظه على تعليم الفتاة، أنّها تدرس المناهج والدروس نفسها التي يدرسها الفتى، وهذا خطأ بالغ، لأنّ الفتاة تحتاج في حياتها العمليّة بعد التخرّج، إلى ما لا يحتاج إليه الفتى، فهي مهيّأة بفطرتها وخلقتها لتكون زوجة وأمّاً، لذا كان من الواجب أن تتعلم ما يفيدها في حياتها المقبلة.

صادق: وما رأيك ـ يا سيّدي ـ في توظيف المرأة؟.

السباعي: نصَّ الإسلام بصراحة على منع تولّي المرأة رئاسة الدولة، وكلّ ما كان بمعناها في تحمّل المسؤوليات الخطيرة، أمّا سائر الوظائف الأخرى، فليس في الإسلام ما يمنع المرأة من تولّيها، على أن يتمّ ذلك وفق مبادئ الإسلام وأخلاقه.

صادقة: يعني؟.

السباعي: يعني.. لا يصحّ أن تكون الوظيفة معطّلة لعمل الأمّ في بيتها، وإشرافها على شؤونه.

ولا يصحّ أن تختلط الموظّفة بالرجال، وتبدي من جسمها ما لا يجوز كشفه. ولا يجوز أن تكون الموظّفة في غرفة واحدة مع موظّف أو أكثر من الرجال، لئلا تحدث الخلوة التي يحذّر منها الإسلام أشدّ تحذير.

صادق: فإذا تحققت هذه الشروط، فليس لديك مانع من توظيف المرأة.

السباعي: أنا تحدّثت عن الناحية الشرعيّة، أمّا من الوجهة الاجتماعيّة، فقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشكّ، أنّ توظيف المرأة يزاحم الرجال في ميدان عملهم الطبيعيّ، ومن المشاهد، أنه في الوقت الذي تزدحم فيه دوائر الدولة بالموظفات، نرى الشبّان من حملة الشهادات العليا يتسكّعون في الطرقات، أو يملؤون المقاهي، لأنهم لا يجدون عملاً.

صادقة: يعني؟.

السباعي: يعني أنّ توظيف المرأة بدلاً من الرجل ليس له ما يسوّغه، فلو كنّا نشكو قلّة الأكفياء من الرجال لملء الوظائف، لجاز توظيف المرأة، أمّا أن نخرج المرأة من بيتها، ونأتي بها إلى دواوين الدولة، ثم نطرد الشاب من مكانه الطبيعي فيها، ونردّه إلى البيت، أو إلى المقهى والشارع، فهذا قلبٌ للأوضاع، وإفساد للمجتمع، وسيرٌ بالبلاد إلى الفوضى والأزمات.

صادق: يا لطيف!.

السباعي: وإذا أضفنا إلى ذلك، ما ينشأ من العلاقات العاطفيّة بين الموظَّفة وزميلها الموظَّف الذي يكون معها في غرفة واحدة، وقد يكون متزوّجاً وأباً لعدّة أولاد أيقنّا أنه لا داعي للإكثار من توظيف النساء إلا تقليد الغربيين.

صادقة: هل أفهم من هذا، يا سيّدي، أن المرأة لا تصلح لأيّ وظيفة؟

فابتسم السباعي الجليل، وقال:

لا يا بنتي.. فالمرأة تستطيع أن تفيد كثيراً في بعض المؤسّسات، كالمستشفيات، وروضات الأطفال، والمدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية للبنات، وفي مختلف نواحي النشاط الاجتماعي الذي تنجح فيه نجاحاً كبيراً، لأنّ الله الحكيم خصّها بمواهب وخصائص رائعة في هذه المجالات.

صادقة: وما رأيك ـ يا جدّي العزيز ـ بعمل المرأة؟.

السباعي: الإسلام يجيز التصرّفات التجاريّة للمرأة، دون رجوعها إلى وليّ أمرها أو زوجها. والإسلام يجيز لها العمل لتكسب قوتها، إذا لم تجد من يعولها من زوج أو أقرباء، ولم يقم بيت المال بواجبه نحوها.

صادقة: أنت ـ يا جدّي ـ تتكلم عن المرأة التي تضطرها حالتها الماديّة إلى العمل، وهذا جائز كما قلت، وأنا أريد أن تعطينا رأيك في عمل المرأة بوجه عام.

السباعي: فلسفة الإسلام، في أنّ البنت أو المرأة بوجه عام، لا يصحّ أن تكلَّف بالعمل لتنفق على نفسها. بل على أبيها أو زوجها أو أخيها مثلاً، أن يقوم بالإنفاق عليها، لتتفرغ للحياة الزوجية والأمومة، وآثار ذلك واضحة في انتظام شؤون البيت، والإشراف على تربية الأولاد، وصيانة المرأة من عبث الرجال وإغرائهم وكيدهم. لتظلَّ لها سمعتها الكريمة النظيفة في المجتمع.

وأخرج العملاق من جيبه منديلاً نظيفاً ناصع البياض، ومرّره على جبينه العريض الناصع البياض أيضاً، ثم قال:

ـ عندما زرت أوروبا، ما تألمت فيها لشيء كما تألمت لشقاء المرأة الغربيّة وابتذالها في سبيل لقمة العيش، وقد استطاع الرجل الغربيّ أن يستغلّ ضعف المرأة في هذه الناحية، فسخّرها إلى أقصى الحدود في سبيل منافعه المادية، وشهواته الجنسيّة.. وقد تأكّد لي بعد كلّ ما رأيته، أنّ المرأة المسلمة على ما هي عليه اليوم، أسعد حالاً، وأكرم منزلة من المرأة الغربيّة.

صادقة: الحمد لله.

السباعي: وأزيد على ذلك، أنّ الذين يُخدعون بمظاهر حياة المرأة الغربية، كما تبدو في السينما والتلفزيون والمجلات المصوّرة، والحفلات العامة، هم قصار النظر جدّاً، ففي أوروبا كلّها عشرات من النساء يحللن مراكز مرموقة، بينما تعيش عشرات ملايين النساء فيها حياة شقيّة مضنية، تشبه حياة الأرقاء والعبيد، والعياذ بالله.

صادق: هناك حجّة وجيهة يبديها المتحمّسون لعمل المرأة خارج بيتها، هي أن عملها يزيد في الثروة القوميّة للبلاد، وأنّ البلاد تخسر كثيراً عندما يقتصر عملها على الأعمال المنزلية.. يعني.. المسألة اقتصادية.

السباعي: اسمع يا بنيّ.. إنّ اشتغال المرأة يؤثّر على الحياة الاقتصادية تأثيراً سيّئاً، لأنها بعملها تزاحم الرجل في ميدان نشاطه الطبيعي، ممّا يؤدّي إلى نشر البطالة في صفوف الرجال، كما هو حاصل الآن.

وإذا ثبت أنّ عمل المرأة يؤدّي إلى بطالة الرجل، كان من المحتمل أن يكون هذا الرجل الذي زاحمته أباها أو أخاها أو زوجها. فأيُّ ربح اقتصاديّ للأسرة، إذا كان شغل المرأة يؤدّي إلى بطالة المكلَّف بالإنفاق عليها؟.

ثمّ إنّ مصالح الشعوب لا تقاس دائماً بالمقياس المادّي البحت، فلو فرضنا أنّ عمل المرأة يزيد في الثروة القوميّة، إلا أنه من المؤكّد أنّ الأمّة تخسر بذلك خسارة معنوية واجتماعية لا تُقدَّر، تلك هي خسارتها بانسجام الأسرة وتماسكها، فأيُّ الخسارتين أكبر ضرراً في الأمة: الخسارة المادّية أم الخسارة الاجتماعية؟.

صادقة: الخسارة الاجتماعية طبعاً.

السباعي: ثمّ إنّ حياة الناس ـ أيّ ناس كانوا ـ ليست كلُّها تُحسب بحساب الربح والخسارة المادية، فالكرم والشهامة والتضحية والوفاء وبذل العون للآخرين.. كلُّ ذلك خسران ماديّ، ولكنّه ربح معنويٌّ عظيم لا يتخلَّى عنه الناس الشرفاء الذين يعتزون بكرامتهم الإنسانية.

صادقة: سؤال أخير في هذا المجال.. ما رأيك بأدب الجنس وأدبائه؟

اهتمّ المفكّر الكبير لهذا السؤال اهتماماً خاصاً ظهر في تقطيبة جبينه، ثمّ في تحفّزه وهو يقول:

إنّ أدباء الجنس الذين يحرّضون المرأة ـ في أدبهم المائع ـ على الخروج على الآداب الصالحة التي عُرفت بها المرأة المسلمة، ويغرونها بأن تتبع طريق المرأة الغربية، ويعملون على حرمانها من هدوئها وسعادتها.. هؤلاء يحملون أكبر وزر من انجراف المرأة والمجتمع في هذا التيّار الضارّ.. إنهم يحملون بأيديهم معاول التهديم في صرح كياننا الداخلي المتين، وهم لا يريدون بأدبهم هذا مصلحة الأمّة، بل دمارها، وهم يبغون الفساد والإفساد والإثراء الماديّ بنشر هذا الأدب الرخيص المدمّر بين الشباب والفتيات..

إني لا أرى فرقاً بين أثرياء أدب الجنس وأثرياء الحرب، فكلاهما يجد في الأزمات فرصة للربح والكسب، بل إن أثرياء الجنس أشدُّ خطراً، وأسوأ أثراً، فلماذا نتركهم يخربون بيوتنا باسم الحريّة، وما كانت الحريّة الخالصة من الشوائب إلا حريّة بناء لا تهديم، وحريّة تقدُّم حقيقيّ، لا رجوع إلى الوراء آلاف السنين، حين كان الإنسان ينطلق وراء شهواته، لا يبالي بمجتمع، ولا يتقيّد بنظام؟..

صادق: هذا صحيح.

السباعي: إنّ أدباء الجنس يقصرون إنتاجهم كلّه على هذا النوع المؤدّي إلى تفسُّخ الأخلاق، وانحلال الأسرة، وشيوع الميوعة، بينما نعيش أخطر مرحلة في تاريخنا كلّه، مرحلة الكفاح مع إسرائيل، والكفاح يتطلّب أدب الرُّجولة، لا أدب الميوعة، وأدب القوّة، لا أدب الضعف، وأدب التضحية، لا أدب المنفعة، وأدب الحرمان، لا أدب اللذّة وإحياء الغرائز والشهوات.

صادق: الحقّ، يا سيّدي، أنّ أدباء الجنس أعداء ألدّاء لأنفسهم، ولأسرهم، ولمجتمعهم، وللشعوب التي ينتمون إليها ظلماً وعدواناً.

السباعي: كلامك جميل يا صادق، ولكنني أريد أن أسألك شرحاً لما تقول.

صادق: أما أنّهم أعداء لأنفسهم، فلأنهم باعوها للشيطان في سوق الأهوء والشهوات والإثراء غير المشروع بالتلاعب بعواطف المراهقين والمراهقات.

السباعي: جميل.. وبعد؟.

صادق: وأمّا أنهم أعداء لأسرهم، فلأن أبناءهم وبناتهم أول المتأثرين بأدبهم، وهذا مشاهد في حياة أولادهم الذين هم من سفلة الناس سلوكاً وأخلاقاً، فهم قد رُبّوا على الفاحشة، وشاهدوا الفواحش في سلوك آبائهم وأمّهاتهم، كما نبتت أجسادهم من المال الحرام، فكانت النار أولى بها في

الدنيا قبل الآخرة. ولا يغرّنك، يا سيّدي، ما ترى من جمال تلك الأجساد، وما عليها من ثياب، فهي كما قال الشاعر:

جمال الجسم مع قبح النفوس   كقنديل على قبر المجوسي

لاحظت ابتسامة عريضة يشرق بها وجه المصلح الكبير، فعرفت أني تماديت في إبداء رأيي في حضرته، فسكتُّ، ولكنّه استحثّني على المتابعة، وقال:

ـ أنا سعيد بما أسمع منك يا بنيّ، فتابع حديثك.

ولكنّ الحياء عقد لساني عندما تذكرت قولي له: (لا يغرّنّك) فلزمت الصمت، فما كان من صادقة إلا أن تقول:

ـ دعه يا سيّدي، فما سيقوله صادق، تعرف أضعافه، بل إنه لم يتعلّم إلا منك ومن كتبك، وكذلك أنا.. فهل تسمح لي بالانتقال إلى موضوع آخر، فالموضوعات التي تهمّنا وتثيرنا كثيرة.

ازدادت ابتسامة الشيخ الجليل إشراقاً، وقال:

ـ اسألي يا بنتي ما شئت، وأثيري من الموضوعات ما تشائين، وأنا جاهز لمدارسة أي موضوع معكم.

توهّج قلبي بالسعادة، وأنا أرى وأسمع هذا العملاق في تواضعه الذي يجعله يتدارس أيَّ موضوع معنا نحن الصغار، وتذكرت شيئاً من سيرته مع من كانوا في مثل أعمارنا، وكيف أنه كان يجالسهم، ويلاطفهم، وينصحهم، ويطالبهم بما كان يطالب به الكبار، لأنه كان يريدهم أن يكبروا بسرعة.. أن تكون عقولهم وتصرّفاتهم أكبر من أعمارهم.. أن يصيروا رجالاً يحملون معه مسؤولية الدعوة إلى الله، والنهوض بالوطن والأمّة.

وسألت صادقة، وهي تركّز نظراتها في الوجه الصَّبُوح، وكأنّها كانت تدرك أنها ستثير البركان الذي لا يكاد يهدأ حتى يثور:

ـ وماذا عن فلسطين يا جدّي؟.

نظر إليها الأستاذ الكبير في حزن، وصعَّد حسرة أحسسنا بلهبها، وعرفنا أنها ستكون مقدّمة لثوران البركان، ثم قال:

- ألم تقرؤوا مذكّراتي التي دوّنتها عمّا شاهدته في معارك فلسطين، بعد قرار التقسيم؟.

فنفيتُ أن تكون له مذكّرات، فما سمعت ولا قرأت في لائحة كتبه مثل تلك المذكرات، فقال في أسى عميق:

- فتّشوا عن تلك الأوراق، ففيها الكثير مما يجب أن تعرفوه... لا تضيّعوها ولا تضيّعوا غيرها من كتبي وأوراقي وخطاباتي وأبحاثي، فقد صرفتُ فيها كلَّ ما وهبني الله من فكر وأدب ودراسة وبحث وعاطفة.. بذلتُ فيها أياماً وليالي من عمري. من جهدي.. من دمي.. من أعصابي..

صادقة: متى بدأ اهتمامك بالقضيّة الفلسطينيّة يا جدّي؟.

السباعي: منذ عام ١٩٤٢م حين التقيت الأخ الشيخ نمر الخطيب في دمشق.. كان قادماً من فلسطين.. وقد حدّثني عن استفادة يهود فلسطين من الحرب العالمية الثانية، فقد شكّلت السلطات البريطانية لهم كتائب تتدرّب على القتال، وأمدّتهم بالأسلحة والذخائر.

وسكت الأستاذ لحظة صعّد فيها الآهات، ثم تابع يقول:

- قال لي الشيخ نمر: إنّ الوضع في فلسطين خطير، ونحن - عرب فلسطين - يحظر علينا حمل أبسط أنواع السلاح، والعرب والمسلمون غافلون عمّا يُبيّت لفلسطين من شرّ بعد انتهاء الحرب العالميّة الثانية. فهل لك أن تعلن صوت النذير والإيقاظ؟.

وأخرج السباعي الرجل منديلاً من جيبه، التقط به بعض دمعاته، ثم تابع يقول، ونحن في دهشة من بكاء الرجل العملاق، فما كنّا نحسب مثله يبكي. قال:

- كان حديث الشيخ نمر مؤثراً للغاية.. كان حديثاً دمعت له عيوننا، وتعاهدنا أمام الله على أن نبدأ العمل.

صادقة: كيف يا جدّي؟.

السباعي: ألقيتُ أول محاضرة عن فلسطين في مقرّ الإخوان ـ وكان اسمهم يومئذٍ (الشبّان المسلمين) في باحة مسجد الدرويشية بدمشق، وانتهت المحاضرة بحماسة من المستمعين، خرجوا على إثرها في مظاهرة كبرى تهتف لفلسطين، وتدعو إلى العمل من أجلها، حتى إذا وصلت المظاهرة أمام مديرية الشرطة العامة على ضفّة بردى، خرج مدير الشرطة، وأبدى دهشته من مثل هذه المظاهرة الليلية، وكانت الأحكام العرفية معلنة، والتجمّعات ممنوعة، بسبب الحرب، وحاول المدير العام للشرطة فضَّ المظاهرة بالحسنى، فأبى جمهور المتظاهرين إلا أن تصل المظاهرة إلى فندق الشرق، حيث كان يقيم رئيس الوزراء، ولمّا وصلت إلى ساحة محطة الحجاز، حيث فندق الشرق، رغب المتظاهرون في إرسال وفد منهم لمقابلة رئيس الوزراء، ليشرحوا له خطورة القضيّة الفلسطينية، فأبى استقبال الوفد، وأرسل المدير العام للشرطة، ليحمّله المتظاهرون مطالبهم، ثمّ تفرّقت المظاهرة.

نفختُ شواظاً من نار ثمّ قلت:

ـ إنّهم هم في كل زمان ومكان في دنيا العرب.

فرمتني صادقة بنظرة حانقة، ثم قالت:

ـ هنيئاً لكم.. كنتم تتظاهرون، وتعبّرون عن آرائكم وتطلعاتكم ومطالبكم، دون أن تتعرّضوا للرصاص، ولا للموت، ولا للسجون... هذا والأحكام العرفية معلنة، فماذا كنتم تفعلون، لو كان الحكم بغير حالة الطوارئ والأحكام العرفيّة؟.

ولم يعلّق الأستاذ الكبير على كلامي وكلام صادقة، بل تابع يقول:

ـ وانتقلت بعد ذلك إلى جميع المدن السّورية لأشرح للجماهير خطورة الوضع، حتى اتّهمني الغافلون عن حقائق الأمور في فلسطين، بأني أبالغ كثيراً فيما أسرد من حقائق.

صادق: هذا أثناء الحرب العالمية الثانية، والبلاد تخضع لقوانين الأحكام العرفية، فماذا فعلتم بعد انتهاء الحرب؟.

السباعي: صرنا ـ نحن الإخوان المسلمين ـ نعمل لفلسطين في ثلاثة ميادين:

الأول ـ على الصّعيد الرسميّ، بتقديم المذكّرات للحكومة، وللجامعة العربية.

صادقة: (في سخرية): وصلنا!.

السباعي: الثاني ـ على الصعيد الشّعبي، بالمحاضرات، والاجتماعات العامة في المدن والقرى.

صادقة: عظيم!.

السباعي: الثالث ـ على الصّعيد العمليّ، إذ أرسل الإخوان بعض شبابهم إلى فلسطين، ليطّلعوا على أحوال اليهود فيها، فزاروا يافا وتل أبيب وحيفا والقدس، وكثيراً من المستعمرات اليهودية.

صادقة: رائع!.

السباعي: فلمّا كانت كارثة التقسيم عام ١٩٤٨م، وهبَّ الشعب في جميع البلاد العربيّة يطالب بالتطوع في القتال لمنع التقسيم، أخذ الإخوان ـ في الاجتماعات العامّة، وفي الصّحافة ـ يبيّنون خطر التقسيم، ووضعوا لذلك ميثاقاً أخذوه على الجماهير، بتشكيل جيش لتحرير فلسطين، يتطوّع فيه كلُّ قادر على القتال، وبرفض التقسيم، والدّفاع عن عروبة فلسطين، وأعلنوا فتح باب التطوع في مراكزهم في جميع أنحاء البلاد.

صادقة: وهل استجاب الشعب لنداءاتكم؟.

السباعي: نعمْ... فقد أقبل الشعب إقبالاً منقطع النظير على تسجيل أسمائهم كمتطوعين في جيش التحرير المرتقب.

صادقة: وتركتكم الحكومة؟.

السباعي : بل فاجأتنا بقرار يمنع أيّة هيئة من تسجيل المتطوّعين .

صادق : وكنتم أنتم المقصودين بهذا القرار ! .

السباعي : طبعاً نحن ، فلم تكن هناك أيُّ هيئة أعلنت قبول المتطوّعين غير الإخوان .

صادقة : ثم ماذا يا جدّي ؟ .

السباعي : ثمّ اتخذت الجامعة العربية قراراً بتأليف جيش الإنقاذ ، وافتتحت الحكومة مراكز للتطوع ، فطلبنا منها أن يكون شبابنا منضمّين في كتائب خاصّة بهم ، تحت قيادة جيش الإنقاذ .

صادقة : فرفضتْ ذلك .

السباعي : عندها لم يجد إخواننا بُدّاً من الاندماج في كتائب المتطوّعين ولكن . ما سارت أفواج المتطوّعين إلى فلسطين ، حتى جاءتنا رسائل الإخوان من كل مكان ، تستغيث من الجوّ الذي يعيشون فيه ، ويطلبون إلينا أن تكون لهم كتائب خاصّة بهم ، ينسجمون فيها مع عقيدتهم وعبادتهم وأخلاقهم .

صادق : لماذا يا سيِّدي ؟ .

فظهر الامتعاض والقرف في الوجه الذي يشعُّ نوراً وعلماً وإيماناً ، ثم أجاب قائلاً :

ـ كانت فكرة المسؤولين قائمة على أنّ المتطوّعين يجب أن يكونوا من العامّة ، ومن ذوي السوابق في الجرائم ، أو من العاطلين عن العمل .

صادقة : وهل يمكن لهؤلاء أن يحاربوا العصابات اليهودية المتعلّمة ، المدرَّبة ؟ .

السباعي : اسمعوا ما قاله لي مسؤول كبير . . . قال لي : إنك تحمّس الشباب المتعلمين للتطوع في حرب فلسطين ، ومن الحرام أن نرسل بهذه الزهرات ليموتوا هناك ، وخيرٌ منهم العاطلون من القبضايات (أي الشُّطّار وأهل الفتـوّة ممن عُرفوا بالجرأة في القتل والضرب) وهـؤلاء بلا عمل ، فلنرسلهم إلى هناك .

صادقة: وهل سكتَّ له يا عمّي؟.

السباعي: بل قلت له: إنّ معركتنا مع اليهود ليست معركة أجسام وزنود، بقدر ما هي معركة وعي وتضحية وإيمان، وإننا سنقاتل في فلسطين شباباً من اليهود أُعدُّوا فكريّاً وعسكريّاً لهذه المهمّة منذ سنوات.

ونظر إليّ الرجل الكبير وقال:

ـ هذا هو السبب الذي لعله جعلكم تطلبون أن يكون لشبابكم كتائب خاصّة بهم، تحت قيادة جيش الإنقاذ.

صادق: لماذا لم تلحّوا وتصرُّوا على هذا الطلب، وتشرحوا لهم السبب؟.

السباعي: ألححنا وأصررنا وبيّنّا الأسباب، عندها قالوا لنا:

«إذا أردتم أن تذهبوا في أفواج خاصة بكم، فنحن لا نقدّم لكم سلاحاً، بل يجب أن يكون سلاحكم منكم..» مع أنّ الجامعة العربية كانت قد رصدت لجيش الإنقاذ أموالاً طائلة، وكلّ المتطوعين عندهم، يقدّمون لهم أسلحتهم وذخائرهم وملابسهم.

صادق: إذن... لماذا هذا التصرّف المتعنّت منهم؟.

السباعي: ليحمّلونا ما لا نقدر عليه، فقد بلغ ثمن البندقية يومئذٍ، ألف ليرة سورية، أي مئة جنيه إسترليني، وأكثر شبابنا المتطوعين من الطلاب والعمال، فكيف نتحمّل نحن ثمن أسلحتهم وذخائرهم؟!.

صادقة: وماذا فعلتم يا جدّي لحلّ هذه المشكلة؟.

السباعي: عرضناها على الإخوة المتطوعين.

صادقة: فثاروا وسبُّوا وانفضُّوا إلى بيوتهم.

فرماها العملاق بنظرة عتاب حانية، ثم قال:

ـ سامحك الله يا بنتي... أهذه هي ثقتك بالمجاهدين؟.

صادقة: عفواً يا عمّي . . . أنا أقيس المسألة على أهل زماننا.

فأبديت احتجاجي على كلام صادقة، وقلت:

ـ أنت تعرفين حالات شاذّة، في ظروف شاذّة، من بعض الشواذّ الذين لا علاقة لهم بالجهاد والمجاهدين، ولا بالحركة أصلاً، أو ممن أرهقتهم المحنة، فضعفوا . . . أمّا أنا، فأعرف نماذج، وسمعت من أبي عن نماذج في طهر الملائكة، وإيمان الصّحابة، وتضحية أصحاب البذل والعطاء على مدى التاريخ . .

كانت أسارير العملاق تطفح بالبشر، وهو يسمع هذا الحوار بيني وبين أختي، ثم قال، وهو ينظر إلى صادقة:

ـ كان من حماسة الإخوان ما يذهل ويدهش، فمنهم من تبرع بثمن بندقيّة، ومنهم من اشترك مع أخ أو أخوين في شراء بارودة، ولا أستطيع الآن أن أفيض في تسجيل هذه المآثر، وحسبي أن أذكر شيئاً مما تيقّنته بنفسي، فقد رأيت بعضهم، وكان على أهبة الزواج، يبيع إحدى سجّادتين كان اشتراهما لزواجه، ورأيت منهم من باع بعض ثيابه، ورأيت من استدان . . . وهكذا.

فهتفتُ وصادقة في فرح:

ـ الله أكبر ولله الحمد.

فهتف العملاق بصوته الساحر:

ـ الله أكبر ولله الحمد . .

ثم مسح حبّات اللؤلؤ التي زيّنت الجبين العريض الناصع البياض، وقال:

ـ ما أحلاه من هتاف . . . لطالما بُحّتْ حناجرنا وهي تعلو به إلى عنان السماء.

صادق: وهل وجدتم السّلاح يا سيِّدي؟ .

السباعي: أخذنا نفتش عنه في كل مكان. . . كان نادراً وكان غالياً. . . واضطرني ذلك إلى الإقامة في حلب شهراً كاملاً، نتجول في كل يوم في القرى والبلدات المتاخمة للحدود التركية، لشراء البنادق والمسدّسات.

صادق: سمعت أبي يتحدّث مع ضيف صديق له عن تجوالك يا سيّدي في محافظة حلب، وما لقيتَ من عنت وجهل ولؤم وطمع من بعض الناس.

السباعي: لعله أبو محمد. . . أعني الشيخ علي كورج!.

صادق: نعمْ يا سيدي. . . إنه هو. . . وكان مما سمعته يحدّث أبي، أنّ بعض اللؤماء في بلدة (الباب) باعوك ذخيرة فاسدة بخمسة وعشرين ألف ليرة سورية، واكتشفتم فسادها وأنتم تقاتلون في القدس، فأرسلت الشيخ علياً مع أخ آخر، عادوا إلى ذلك التاجر اللئيم، وعندما قرأ في عيونهم ما أوصيتهم به، اعتذر وهو يرتعد، وأعاد إليهم المبلغ، ومعه خمس بندقيات وآلاف الطلقات، وذهب معهم مودّعاً ومعتذراً حتى غادروا حلب في طريقهم إلى القدس.

السباعي: كان الشيخ علي نشيطاً، وكنت أعتمد عليه في قرى الشمال، وكان يرسل إلينا ما يشتريه، ولا نكلّفه بقتال. . كان من الجنود المستورين.

صادقة: وبعدها يا عمّي؟.

السباعي: حتّى إذا تمَّ لنا تجهيز السلاح لكتيبة كاملة، انتقينا من مئات إخواننا المتطوعين في سائر المحافظات السورية، من نعلم قدرتهم على القتال في فلسطين، واضطررنا إلى الاقتراع بينهم، فغضب لذلك كثيرون، حتى إن بعضهم قدّم استقالته من الإخوان، لأننا حلنا بينه وبين الجهاد في سبيل الله.

فهتفنا أنا وصادقة:

ـ الله أكبر ولله الحمد.

وردّد الرجل الكبير الهتاف بعدنا في حماسة كحماستنا، ثمّ تابع حديثه:

ـ اتفقنا مع المسؤول عن المتطوعين من قبل الجامعة العربية، على أن تذهب كتيبة الإخوان في موعد معيّن إلى معسكر قطنا ـ قرب دمشق ـ للتدريب على أساليب القتال، وكانت قد وصلت قبلنا بيومين كتيبة من كتائب الإخوان في مصر، لتشترك معنا في القتال، في المكان الذي ألحجنا أن نكون فيه، وهو مدينة القدس، وكان القتال فيها خطيراً جداً... كانت تدور فيها معارك حامية تدور من بيت إلى بيت، ولا يفصل بين مواقع المجاهدين وبين مواقع اليهود إلا شارع ضيّق، لا يزيد عرضه عن بضعة أمتار في كثير من الأحيان.

صادقة: سمعت أنك التقيت الإمام الشهيد في قطنا يا جدّي.

السباعي: رحمه الله رحمة واسعة، فقد كان فذّاً بين الرجال، فذّاً بين المجاهدين، فذّاً بين العلماء العاملين، فذّاً بين المفكرين والمخطّطين، فذّاً بين الشجعان، لا يهدأ، ولا ينام ولا ينيم... إنه حركة دائبة، وجهاد متواصل، وعمل دؤوب في شتّى الميادين.. حياته كلّها جهاد في جهاد... تلقاه في أعماق الصعيد، وتلقاه في القاهرة، وتلقاه في سورية، وتلقاه في الحجاز، وتلقاه في فلسطين، يعيش الإسلام ومن أجل الإسلام وأمّة الإسلام، وأرض الإسلام... زار قطنا وتفقّد الإخوان المجاهدين، وزار بطاح فلسطين، واستشهد من أجل فلسطين.. يا حسرة عليه!! ويا حسرة على فلسطين!!

صادق: كيف كانت المعارك بينكم وبين اليهود يا سيّدي؟.

السباعي: كانت في أطراف القدس وداخلها مستمرّة، لا ينقطع فيها أزيز الرصاص والرشاشات والقنابل ساعة واحدة في ليل أو نهار، من خلال نوافذ البيوت، ومنعطفات الطرق، وكانت الهجمات مباغتة، نقوم بها على

مراكزهم، أو يقومون بها على مراكزنا، وكانت النجدات تصل إلينا وتصل إليهم في كل يوم تقريباً، وكان الإنكليز يساعدون اليهود، يقدّمون إليهم كلّ ما يحتاجون إليه.

صادق: مثل ماذا؟.

السباعي: عندما حوصر اليهود في حيّهم في القدس القديمة مدّة ستة أشهر، كان الإنكليز يجلبون إليهم الطعام والمعدّات وكلّ ما يطلبون.

صادق: وهل استمرّ الحصار إلى ما لا نهاية؟.

السباعي: بل بدأنا المعركة الفاصلة معهم، وكانت من أشدّ المعارك التي خضناها في القدس، أظهر فيها المجاهدون من البطولات ما يعجز عنه الوصف، فقد كانوا يتقدمون لنسفه بيتاً بيتاً، تحت وابل من الرصاص والقنابل التي كان اليهود يقذفونها من نوافذ البيوت، ومن سطوح المنازل.

صادقة: هل كان الحيّ واسع الطرقات؟.

السباعي: بل كانت طرقاته ضيّقة جداً، كشأن سائر الأحياء اليهودية القديمة في كل مكان، وكانت فيه ممرات تحت الأرض، متّصل بعضها ببعض، بحيث يستطيعون العودة في الليل، إلى ما فقدوه في النهار، وكثيراً ما كان المجاهدون يفاجؤون، وهم واقفون على أطلال البيوت المدمَّرة، بقنابل تُلقى عليهم من قرب، كما حدث معي ذات مرّة، ولولا لطف الله لأُصبنا إصابات بالغة.

صادق: والنتيجة؟.

السباعي: اضطرّ اليهود إلى التسليم... استسلموا بعد نفاد ذخيرتهم.

صادق: والإنكليز الملاعين؟.

السباعي: كانوا قد جلوا عن القدس.. ولذلك تمكنّا من اليهود.

صادقة: ولكن القدس الجديدة بقيت في أيدي اليهود.

السباعي: هذا يعود إلى أسباب وجيهة أضاعت القدس الغربية، كما أضاعت شطراً عزيزاً من أرض فلسطين.. واسمعوا هذا الحوار بيني وبين المسؤولين عن حرب فلسطين في دمشق. قال أحدهم:

«دخلنا معركة فلسطين، ونحن لا نعلم حقيقة قوة الأعداء».

فقال المسؤول الآخر مستدركاً:

«بل كنّا نعرف حقيقتهم تماماً، وهذا تقرير صفوت باشا قد تبيّن لنا انطباقه على الواقع».

وهنا قلت لهم:

«إذا كنتم تعلمون حقيقة استعداد اليهود، فكيف أعددتم جيش الإنقاذ لينقذ فلسطين، وهو لا يزيد على أربعة آلاف رجل، وكلُّهم أو أكثرهم غير مدرَّبين تدريباً كافياً، وليست له قوّة جوّية، ولا مدفعيّة إلا مدفعيّة بسيطة جدّاً، مع أنَّ في القدس الحديثة وحدها عشرة آلاف مقاتل يهودي؟».

صادقة: وبماذا أجابك ذلك المسؤول؟.

السباعي: قال: «إننا لم نرسل جيش الإنقاذ ليحارب، بل ليقوم بمهمّات مؤقتة».

صادق: أعوذ بالله من شرور هؤلاء المسؤولين.. وهل قلت له شيئاً يا سيّدي؟.

السباعي: فقلت له: ولهذا كان أكثر جيش الإنقاذ يتنّزه في مناطق عربية بحتة، كنابلس، بينما كانت حيفا ويافا وغيرهما تسقط في أيدي اليهود، وكانت مجازر دير ياسين تقع على سمع هذا الجيش وبصره.

صادق: فخرسوا.

السباعي: نعمْ.. سكتوا كلّهم...

صادقة: ثمّ ماذا يا جدي؟.

السباعي: بعد أيام قليلة وقعت الهدنة المشؤومة، وجاءتنا الأوامر من قيادة جيش الإنقاذ بدمشق، تأمرنا بالانسحاب من القدس، وتسليمها إلى الجيش العربي، بحجّة أنهم سوف يرسلوننا إلى الجبهة السوريّة.

صادق: ونفذتم الأوامر العليا.

السباعي: وعُدْنا إلى دمشق، وتسلمتْ قيادةُ جيش الإنقاذ أسلحتَنا، ووعدتْ باستدعائنا عند الحاجة.

صادق: وهم عند وعدهم!!.

السباعي: ووجدت من واجبي أن أكشف الحقائق التي تبيّنتُها بنفسي، وألقيتُ في ذلك عدّة محاضرات في دمشق وحمص وحماة وحلب واللاذقيّة ودير الزور وغيرها من المدن السّوريّة، وذُهل الجمهور لما أبديتُه من حقائق لم تكن معروفة لديهم تماماً، حتى شكَّ بعضُهم فيها، ثمّ اكتشف الأمر، وتبيّن صدقُ ما أدّعي عن العوامل الخفيّة والظاهرة التي كانت تسيّر معركة فلسطين.

صادقة: هل تلخّص لنا المعركة بيننا وبين اليهود في كلمات يا جدي؟

فتحرّك الجبل الأشمّ في حزن، ثمّ قال:

ـ المعركة بيننا وبين اليهود تتخلّص فيما يلي:

إنها معركة بين عقيدة ولا عقيدة.

بين علم وجهل.

بين نظام وفوضى.

قلت:

ـ وأنا أريد معرفة رأيك الصريح يا سيّدي في جيش الإنقاذ.

أجاب الطَّوْد المجرِّب الذي خبر الرجال والسياسة وكواليسها:

ـ أكتفي بتسجيل الملاحظات التالية:

أولاً ـ إن جيش الإنقاذ الذي ألّفتْه الجامعة العربية، ووكلتْ قيادته إلى فوزي القاوقجي، لم يكن إلا تسكيناً لشعور العرب الهائج في كلّ بلد، ولم يكن يُقصد منه جدّيّاً أن يقاتل ويمنع سقوط المدن والقرى العربيّة في أيدي اليهود.

صادقة: أعوذ بالله.

السباعي: ثانياً ـ إن قيادة جيش الإنقاذ لم تخض معركةً جدّية واحدة في فلسطين؛ فالقاوقجي كان مقيماً قرب نابلس، في منطقة عربية بحتة، وصفوت باشا وطه باشا لم يدخلا فلسطين قطّ، ولم يكونا يعرفان حقيقة الأوضاع في فلسطين... كان مقرُّ طه باشا في دمشق، وكان صفوت باشا يتنقّل بين القاهرة ودمشق، وهما المسؤولان عن جيش الإنقاذ.

ثالثاً ـ كانت مهمّة جيش الإنقاذ تحطيم منظمة (الجهاد المقدّس) التي انخرط فيها شباب فلسطين، وأبدوا من البطولات ما سجّله لهم التاريخ بإعجاب وإكبار، وكان قائدها الشهيد البطل عبد القادر الحسيني يحاول أن يحصل من الجامعة العربية على قدرٍ كافٍ من الأسلحة، فخاب مسعاه، حتى إنه حين جاء إلى معسكر قطنا ليأخذ معه الفوج الأول من إخواننا قال:

«طلبتُ منهم مدفعاً واحداً فرفضوا، وأعطوني مئة بندقية لا تصلح إلا لوقود النار. وهذه هي معي في السيّارة».

ونظرنا، فإذا ببنادق من العهد الفيصلي في أعقاب الحرب العالمية الأولى، وأكثرها معصَّب بعصائب من الحديد.

ثم تابع الحسيني قائلاً:

«إنني ذاهب إلى فلسطين لاسترداد (القسطل) وسأموت، ولن أترك بلادي فلسطين طعمة للأعداء».

صادقة: رحمه الله ورحم شهداء أمّتنا رحمة واسعة.

صادق: على ذكر الشهداء.. هل تذكر لنا أسماء بعضهم؟.

السباعي: إنهم كثر. . أذكر منهم: تيسير طه، وضيف الله مراد، والرقيب هاشم، ومحمد قباني، ومحمد عرنوس، ومحمود الدندشي، ومحمد الصبّاغ، وراشد طالب، ونايف حسن عودة، وراضي الجوهري. . تغمّدهم الله بفيض رحمته ورضوانه، فقد كانوا مجاهدين أبطالاً، جادوا بأرواحهم في سبيل قضية الإسلام الأولى في هذا العصر، قضية فلسطين، أعادها الله إلينا عزيزة كريمة، وعلى أيديكم يا شباب الإسلام.

ثمَّ هبَّ الشُّموخ واقفاً، وتوجَّه نحو القبلة، ورفع يديه إلى السماء، وانطلق لسانه يقطر عسلاً مصفًّى، وهو يناجي ربَّه:

ـ يا رب!

إنك تعلم أنّ لدعوتك جنوداً كالملائكة طهراً،

وكالصدّيقين إيماناً،

وكالأسود شجاعة،

وكالماء عذوبة،

وكالشمس ضياء،

وكالهواء صفاء،

قد جمعتْهم يدُك على الهدى،

ولملمتْهم دعوتُك على بُعد المدى،

يحاربون من هم أكثر منهم عدداً،

وأقوى سلطاناً،

وأعزُّ جنداً،

وأقوى فتنة،

وأشدُّ إغراء،

ولكنّهم لا يستكثرون بالعدد،
ولا يتقوَّون بالسلطان،
ولا يعتزّون بالجند،
ولا يعبؤون بالفتنة،
ولا يتأثرون بالإغراء،
قوّتُهم بعبادتك،
وعزّتُهم بجبروتك،
وسلاحُهم من شريعتك،
وفتنتُهم بجنّتك،
وغرامُهم بوصالك،
وهيامُهم بجمالك.
هجروا في سبيلك المضاجع،
وفارقوا من أجلك الأوطان،
وتحمّلوا لمرضاتك العذابَ والآلام،
وحُرموا للجهاد فيك قُرْبَ الأهل والولد،
ولذيذَ العيش وطيبَ المقام،
فصُنْهم - يا ربّ - من بطش الظالمين،
وأبعدْ عنهم خُبْثَ المستغلّين،
ودسائسَ المفسدين،
وقيادةَ الجبناء والمغرورين والمراوغين،
ولا تجعلْ لذوي العُقَد النفسيّة عليهم سبيلاً،

ولا لأصحاب العقول الآسنة المتحجرّة عليهم نفوذاً،

ووسِّعْ مداركهم ليفهموا مرامي الشريعة، ومقاصدَها الاجتماعيّة النبيلة، مع دراستهم لمشكلات مجتمعهم دراسةً عميقة، تصل إلى معرفة أسبابها وعلاجها.

واجعلهم ألسنةَ الشعب الناطقة بالصدق،

المطالبة بحقوقه،

المدافعة عن قضاياه،

بروح الهُداةَ المرشدين،

والأطبّاء الناصحين،

حتى يرى فيهم الشعبُ أكرمَ مَنْ حملَ لواءَ الإصلاح،

وأصدقَ مَنْ خدمَ قضايا الجماهير،

وأوعى مَنْ عالجَ مشكلات المجتمعات،

لا يجاملون فئة على حساب فئة،

ولا ينحازون إلى جماعة دون جماعة،

لا كما يفعل بعض المدّعين للعلم،

المتصدّين للتكلّم باسم الإسلام،

وهم يدافعون عن فئة من حقّها أن تحفظ حقوقها،

وليس من حقّها أن تُقرَّ على مطامعها واستئثارها،

ولكنهم يهملون حقوق الجماهير،

وما جاءت الشريعة إلا لرفع مستواها،

وردّ كرامتها إليها.

ولا يرفعون أصواتهم بالدفاع عن حقوقها المهضومة ،
ولا يقضّ مضاجعهم حياتُها البائسة الكئيبة .
ويا ربّ اجعلهم ـ برحمتك ـ دعاة ثـورة بنّـاءة هدّامة ،
تهدم ما في المجتمع من مظاهر التخلف والجهل والظلم ،
وتبني أقوى مجتمع متماسك متحابّ ،
لا تحقد فئة على فئة ،
ولا تعتدي قلّة منه على حقوق الكثـرة الغالبة .
ويا ربّ اجعلهم دعاة ثورة كثورة نبيّهم وصحابته ،
حين حملوا إلى العالم مبادئ الحقّ والخير والسلام ،
فاضطّروا إلى أن يزيحـوا من طريق الشعوب أعداءها المتسـلّطين ،
الذين لا تهمّهم إلا مصالحهم ، ولا تحرّكهم إلا شهواتهم .
اللهمّ اجعل محمداً ﷺ مربّيهم في الآخرين ،
كما جعلتـه مربّي أسلافهم في الأوّلين ،
وسلام على المرسلين ،
والحمد لله رب العالمين .

* * *